د. أحمد خالد توفيق

لَسْتَ وَحْدَك



مَجْموعَة قَصصيّة

سبارك للنشر والتوزيع



د. أحمد خالد توفيق

سوف نعرف أشياء أكثر عن أنفسنا، وعن الشيء الذي ينتظر هنالك عند المنعطف المظلم التالي. ستعرف لماذا ينظر لك الناس بمقت أحيانًا وينظرون لك بانبهار أحيانًا أخرى. ستعرف من القتيل في ذلك البيت الريفي الذي أغرقته الأمطار، ولماذا لم يحدث أي شيء لهيام.. لماذا رسمت هذه النقوش الغريبة على جدران الكهف؟.. ولماذا لا تنغلق المقبرة إلا على ثلاثة موتى؟ سوف تعرف أكثر عن الرعب والخوف والهول.

تيك توك !

هناك علامات دقيقة تتفوق على حواسنا ولا نراها ولا نسمعها..
علامات على الموت تسبق توقف القلب وتوقف التنفس .. هو أوتي القدرة على التقاط هذه العلامات قبل سواه.. فيما بعد قرأ عن العلامة (ماكس ليبمان) الذي كان يفحص قلب فتاة فقال للأطباء الذين حوله إنهم سيسمعون صوت لغط من قلبها خلال يومين!. هنا ضربوا كفًا بكف وقالوا ساخرين إن الطب ليس علم تنجيم. قال لهم: بل اللغط موجود الآن وأنا أسمعه.. لكن آذانكم لا تقدر على ذلك بعد.. سوف تسمعونه عندما يزداد قوة بعد يومين!

في سن الخامسة عشرة أدرك إيهاب المليجي أنه مختلف..

هل ظهرت تلك الموهبة فجأة؟.. لا يذكر قط أنها كانت عنده وهو طفل . يعرف أن هناك أمورًا خارقة للطبيعة تعلن عن نفسها في سن المراهقة، ولربما كانت هذه الموهبة موجودة لكنها لم تظهر إلا في السن المناسبة..

كان في الصف.. وكان مرهقًا يتابع المعلم بنصف وعي ونصف عين، وقد بدا له موعد قرع الجرس موعدًا نورانيًا يصعد به إلى سموات الخلاص..

هنا رأى هذه الأشياء.. كانت في كل مكان، وكان المشهد لا يصدق ولا يمكن التعبير عنه بكلمات. كان عاجزًا تمامًا عن فهم ما يراه، لكنه أدرك أن هذه الأشياء حية.. كانت تتحرك بقصد وإرادة ذكية لا شك فيها..

أطلق صرخة قصيرة، وهنا فطن إلى أن كل الصف ينظر له..

المعلم نظر له بعينيه المتهمتين – وكل معلمي الرياضيات لهم عيون متهمة – وسأله بطريقة عابرة فيها نوع من السخرية:

"هل من مشكلة ما؟".

كان على قدر من الذكاء يسمح له بأن ينفي أنه يرى شيئًا غريبًا.. قال كلمات مرتبكة معناها العام (لا شيء).. ثم أطرق وراح ينظر لكفيه...

قال لنفسه إن هذا كله وهم.. نعم.. هو مرهق.. الهلاوس البصرية تحدث مع الإرهاق..

وانتهت الحصة، فمشى ناظرًا للأرض.. عندما صفعه رامي كما هي العادة لم يرد ولم يقل شيئًا.. في العادة كان يلاحقه إلى أن يرد له الصفعة..

عاد لبيته مطرقًا... هناك كان أبوه يعد مائدة الغداء كما هي العادة...

رفع عينه في حذر، فأدرك في ذعر أن هذه الأشياء تملأ المكان هنا أيضًا.. لابد أن هناك ستة منها في هذه القاعة الضيقة، وقد اندهش بشدة لأن أباه يجد حيزًا يتحرك فيه..

أبوه لا يرى شيئًا.. أبوه لا يرى ما يراه.. هذه نقطة مهمة...

بدل ثيابه واغتسل وصلى الظهر داعيًا الله أن ينام ويصحو فلا يرى هذه الأشياء..

كان أبوه قد فرغ من إعداد المائدة.. عمته تأتي يوم الجمعة فتعد طعامًا يكفي لأسبوع.. تغلف كل وجبة في رقائق الألومنيوم وتضعها في فريزر الثلاجة، هكذا يكون طعام كل يوم محددًا سلفًا . الاثنين هو يوم البازلاء واللحم والأرز.. الثلاثاء يوم السمك والأرز الأحمر.. الأربعاء يوم الفول بالصلصة...

منذ الحادث صار أبوه يلعب دور الأب والأم معًا، وهي مهمة عسيرة.. لم يتزوج برغم أن الكثيرين نصحوه بذلك، لكن الرجل كان قد فقد رغبته في النساء، وبدا له غير إنساني أن يتزوج امرأة لتكون مجرد خادمة له ولابنه... إن أخته تعنى بموضوع الطعام، وهناك عجوز تعنى بموضوع الغسيل ونظافة البيت.. لا بأس.. هكذا يمكن أن تستمر الحياة..

كان الأب يعرف أن هناك لغزًا ما يحيط بابنه منذ جاء العالم. بعض الأطباء قالوا إنه داء التوحد Autism لكن طبيبًا نفسيًا بارعًا أقنعه أن هذا كلام فارغ.. إذن ماذا يعانيه الصبي؟.. لا أحد يعرف..

فيما بعد وقع الحادث وسقطت السيارة في الترعة وفيها الأم

و(إيهاب)... الأب استطاع بمعجزة ما أن ينزل الزجاج وهكذا استطاع أن يفتح الباب ويطفو للسطح . بعد دقيقة جاء فلاحون كثيرون وتعاونوا على إخراج الضحيتين.. الأم لم تتحمل... إيهاب ظل حيًا...

ترى هل كان لهذا الحادث يد فيما جرى؟

هل لهذا الحادث دور في الأشياء التي يراها؟

ربما.. فيما بعد كبر إيهاب وقرأ أن نقص الأكسجين يوقظ مراكز معينة في المخ، لكن إثبات هذا صعب جدًا.. هناك اختبار باهظ الثمن اسمه (الأشعة المقطعية باستعمال انبثاق البوزيترون PET) لكن أين وكيف يقدر على إجراء أشعة كهذه؟.. دعك من أنه يعرف نتيجة التقرير: هناك نشاط زائد في البقعة الفلانية.. هل تحب أن نزيلها جراحيًا؟.. هنا سوف يرفض لأنه - لسبب ما - ليس ممن يحبون أن يقطع المبضع جزءًا من أمخاخهم.. قلت لك إنه غريب الأطوار..

في ذلك اليوم جلس يلتهم البازلاء والأرز، وهو يرفع عينه من حين لآخر لأبيه فيرى تلك الأشياء تحوم حوله.. كانت أشياء بشرية إلى حد ما، لكنها كذلك غير بشرية على الإطلاق...

لم يندهش أبوه فقد اعتاد أن ابنه ليس أفضل محدث في العالم.. أحيانًا تمر ثلاثة أيام دون ان يتبادلا كلمة..

بعد الغداء أخلد إيهاب للنوم وهو يرتجف...

عندما صحا بعد ساعتين، كان أول ما رآه أن هذه الأطياف تملأ الغرفة من حوله... فقط اكتسبت بريقًا ملونًا فوسفوريًا في ظلام الحجرة..

سوف أختصر هذه التجربة القاسية إذن..

لقد تعلم إيهاب أن هذه الأطياف ضيوف سمجون لا يمكن الخلاص منهم.. سوف يكونون معه بقية حياته..

على الأرجح هو ليس مجنونًا.. ليست هذه رؤى مما يراها المخابيل. ما مال لاعتقاده هو أنه يملك شفافية خاصة.. الكلاب تسمع موجات خاصة من الصفارات، لا يسمعها كائن آخر.. ترددات أعلى من اللازم، وعلى الأرجح يحدث هذا مع البصر كذلك. إذن هو يستطيع رؤية ما لا يراه الآخرون.. هذه الأطياف حولنا في كل لحظة.. فقط لا يراها الناس...

وبرغم حداثة سنه فقد قرر أن هذا سره.. سره الخطير الذي يجب ألا يعرفه أحد. هو يجد صعوبة في تصديق أنه ليس مجنونًا فكيف يتوقع أن يعامله الناس؟.. إن مستشفيات الأمراض العقلية تعج بأمثاله.. أمس قابل في الشارع متسولاً يرفع يده بالسلام ويكلم الهواء، وقال له إن سيدنا الخضر كان مارًا أمامه!.. لماذا لم يصدقه؟.. لماذا اعتبره مجنونًا؟.. قد يكون هذا المتسول يملك موهبة أخرى من هذا الطراز، لكن إفساح المجال للتسامح في هذه الأمور يؤدي لفوضى شاملة.. في النهاية لا يمكن أن نقبل إلا ما يُرى ويُسمع ويُشم ويُلمس ويُعقل..

إذن عليه أن يصمت...

عليه ان يحتفظ بهذا السر للأبد....

• • •

ما أصعب أن يحتفظ المرء وهو في سن السادسة عشرة بسر.. !

كانت هذه المشكلة أعقد مما يخطر ببالك لأول وهلة. بالواقع

كانت معقدة جدًا.. خاصة وأنت ترى هذا الزحام في الغرفة من حولك.. تكلم صاحبك وانت ترى اجسامًا تضربه من الخلف ومن الأمام وتهوي فوق رأسه.. تمشي وأنت تشق طريقك وسط هذا الزحام غير المادي.. لا تصطدم بشيء ولا تشعر بشيء لكن الأمر مربك بلا شك..

وهكذا اشتهر إيهاب بأنه يمشي مشية غريبة فيها قدر هائل من الحذر والبطء.. لم يفهم أحد السبب بالطبع..

مع الوقت تعلم أن يتكيف مع هذا العالم المزدحم المحيط به.. تعلم ألا يبدي أي علامات على أنه يرى أشياء.. وتعلم كذلك أن يتجاهل هذه الأشكال قدر الإمكان...

لكنه بدأ يرسم..

الطريقة التي اختارها ليبوح بهذه الأسرار هو أن يرسمها، وهكذا ابتاع ألوانًا ولوح رسم.. وراح يجرب أن ينثر على لوح الرسم تلك المناظر الغامضة التي يراها..

جاء أبوه وألقى نظرة على هذه الرسوم.. لم يفهم مصدرها ولا ما تحاول قوله، وإن فهم أن ابنه على الأرجح مضطرب جدًا.. ابتسم وقال:

"هذا الأسلوب سريالي تمامًا.."

رائحة الشقة ملوخية ودجاج.. إذن هو يوم السبت....

لم يكن يعرف معنى (سريالية) بالضبط.. وكان يقرأ الكلمة كثيرًا لكنه لا يعرف معناها بالضبط.. لهذا سأل أباه عن معناها الدقيق فقال:

"هي محاولة لكسر مفهوم الـ... مفهوم الـ...."

لاح أن أباه مرتبك فرفع عينه في دهشة.. لاحظ قطرات العرق التي احتشدت على جبين الرجل والشحوب. ثم تحسس الرجل جبهته..

وفي مشهد لا يمكن نسيانه بسهولة سقط رأس أبيه على كتفه وكف عن الكلام...

استغرق الأمر عشر دقائق حتى عادت الأمور لمجراها وحتى بدأ الأب يفيق.. ولم يفهم إيهاب قط ما حدث.. حتى بعد ما ذهب مع أبيه إلى طبيب الأمراض العصبية وأجرى عدة تحاليل منها تحليل السكري. لقد كان الرجل في صحة ممتازة...

كما قلنا كان إيهاب شديد الذكاء، لذا قرر إجراء تجربة أخرى.. لقد دعا للبيت صديقًا له وقرر أن يعرض عليه لوحاته.. وبعد كلام المراهقين المعتاد عن آخر أغنية وآخر فيلم وأجمل فتاة في الشارع، أخرج ذات اللوحة وقدمها له..

على الفور بدأت علامات الذهول على الوجه، وتحدر العرق البارد على الجبين...

أخفى اللوحة بسرعة ورش قطرات الماء على وجه صديقه.. ثم قال له إن الحر هو السبب.. نعم . نعم.. الحر.. نحب عندما نفقد وعينا أن يكون هناك تفسير جاهز مريح..

لم يكن (إيهاب) غبيًا بحيث يكرر التجربة . لقد اكتفى بما رأى.. واضح طبعًا أن ما يظهر في اللوحة ينقل لمحة من عالم لا يتحمله الناس غالبًا.. عالم لا يتحمله الناس لهذا لا يرونه. هناك طفرة معينة أدت إلى أن يصير شخص بعينه قادرًا على رؤية هذا العالم، لكن ليس من حقه أن يطلع أحدًا عليه... ومن الواضح أنه رسمه بدقة...

رائحة السمك المشوي.. إنه الجمعة على الأرجح...

تمييز يوم الجمعة مشكلة لأن الروائح تكون كثيرة جدًا.. تذكر أن عمته تطهو طعام الأسبوع كله، وهي تقوم بشي السمك في المطبخ على الموقد...

بارعة جدًا.. يرقب شعرها الأبيض المجعد من تحت الإيشارب في حنان. يقف هناك في المطبخ يرقب الكائنات السابحة في الجو ويؤكد لنفسه أنه ليس مخبولاً...

تيك توك!

تيك توك!

ما معنى هذا؟.. ما سر هذه الدقات المتواصلة؟.. شيء غريب فعلاً..

ليس صوت ساعة.. شبيه بصوت ساعة لكنه يختلف بشدة. وكان يتعالى في عدة أماكن من المطبخ.. ليس المصدر واحدًا كما هو واضح.... هتف في دهشة:

"ما هذا؟".

لكن عمته لم تبد على الخط ولم تبد مهتمة بدهشته.. كانت لديها مشاكل أكثر بكثير من صوت الدقات وهذا الهراء، وإن نظرت له نظرة عابرة وخطر لها أنه غريب الأطوار فعلاً.. لماذا يميل برأسه الكبير بهذه الطريقة كأنه يصغي باهتمام؟..

أدرك أنها لا تسمع شيئًا فضغط على نفسه بقوة وغادر المطبخ... هل بدأت الهلاوس السمعية كذلك؟؟؟.. يا لها من أخبار رائعة.. لقد اقترب موعد الكسرولة على الرأس جدًا..

في المدرسة في ذات الأسبوع حدث الشيء ذاته..

تيك توك.. تيك توك!

لاحظ أن الصوت بدا واضحًا جدًا عندما دخل مدرس التاريخ الفصل.. وعندما بدأ المعلم يتحرك ويشرح، لاحظ أن الأجسام

المحيطة به لها لون أزرق غامض.. ربما يتحول إلى فيروزي شبه مشع في لحظات بعينها، وبدا الضوء كأنه يشع من المعلم نفسه ليسقط على هذه الأجسام المحيطة به.. هل كانت هذه الظاهرة تحدث مع خالته؟.. لا يدري...

على كل حال بدأ يدرك أهمية هذه الظاهرة بعد يومين..

طابور المدرسة وجو التوتر العام والهمسات والصمت والشحوب على وجوه المعلمات، ثم مدير المدرسة ينعي للطلاب أستاذًا عظيمًا هو (نبراس) علم استحق التبجيلا لأنه كاد أن يكون رسولا.. لقد توفي مدرس التاريخ..!

الخبر يهوي على رأسه كأنه جزء انفصل من السماء.. بصعوبة يتنفس ويحاول التماسك... يلهث..

يا لها من مصادفة غريبة..!

نعم مصادفة.. لا تقل شيئًا آخر من فضلك.. هي مصادفة بالتأكيد...

لكن وجه الرجل الطيب الريفي ظل يلاحقه لساعات طويلة.. كل شيء كان على ما يرام ما عدا صوت التيك توك هذا.. ما عدا هذا الوهج الأزرق الغامض....

أتراه كان النذير؟

لا يوجد ما يوحي بهذا، لأنه كلام فارغ أولاً.. ولأن عمته مرت بذات الظاهرة وهي بصحة جيدة فعلاً...

الخلاصة أن كل شيء في حياة إيهاب كان يدفعه إلى أن ينطوي أكثر. حياته معقدة فعلاً ومفعمة بالأسرار... لديه عشرات الأشياء التي يمكن أن تفتضح بسهولة...

رائحة البازلاء واللحم.. لابد أن اليوم هو الاثنين..

يقول له أبوه إن زوجة جارهما قد توفيت.. نعم.. زوجة أستاذ (أبو الفتح) لم تصح من نومها اليوم.. علينا أن نكون في الجنازة ونؤدي واجب العزاء...

(أبو الفتح) هو صاحب الشقة المجاورة.. بعبارة أخرى مطبخهم مجاور لمطبخ (إيهاب).. لابد أن زوجته كانت في المطبخ في ذلك الوقت من يوم الجمعة... أبوه قال مرارًا إن الأصوات تنتقل بوضوح عبر جدار المطبخين وعبر البالوعة...

تيك توك...

لربما لم يكن هذا الصوت قادمًا من عمته على الإطلاق!

• • •

لقد مر أسبوع وقد استطاع إيهاب أن يكون نظرية معقولة عما يحدث..

بالطبع هو لا يتنبأ بالموت.. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالموت. فقط هناك علامات دقيقة تتفوق على حواسنا ولا نراها ولا نسمعها.. علامات على الموت تسبق توقف القلب وتوقف التنفس.. هو أوتي القدرة على التقاط هذه العلامات قبل سواه.. فيما بعد قرأ عن العلامة (ماكس ليمان) الذي كان يفحص قلب فتاة فقال للأطباء الذين حوله إنهم سيسمعون صوت لغط من قلبها خلال يومين!. هنا ضربوا كفًا بكف وقالوا ساخرين إن الطب ليس علم تنجيم. قال لهم: بل اللغط موجود الآن وأنا أسمعه.. لكن آذانكم لا تقدر على ذلك بعد.. سوف تسمعونه عندما يزداد قوة بعد يومين!

الحقيقة أنه – إيهاب - كان قادرًا على سماع اللفظ مبكرًا جدًا....

طبعًا لا يعرف السبب في صوت تيك توك هذا، لكن لا يمكن نفي أنه كان موجودًا منذ البداية..

إذن هو سمع الصوت ورأى الألوان لدى معلم التاريخ.. أما مع عمته فلم يكن يسمع صوتها هي بل صوت الجارة.. كانت قريبة جدًا في المطبخ المجاور وكان الصوت واضحًا..

بعد عام قام بتجربة مثيرة لم يكن ليجرؤ على القيام بها لولا الظروف التي وضعته فيها..

كان الأب قد احتاج لجراحة بسيطة (فتق) في المستشفى، وهكذا وجد أن رعاية الأب تقع بالكامل على عاتقه هو وعمته...وكان يمضي معظم الوقت جوار فراشه.

ما أن دخل المستشفى حتى أصابه الهلع من الزحام.. زحام الأشكال الذي يتحرك في كل مكان.. ألوان صاخبة.. لم ير هذا المشهد من قبل..

بعض الأطياف كان يبدو أقرب لأنابيب أو ثعابين عملاقة... بعضها كان أقرب إلى تصوره لشكل الغيلان.. البعض كان يتوهج ككرة مشتعلة.. ثمة عالم من خيوط لزجة يتدلى من السقف.. وأحيانًا كان شيء مبهم أقرب إلى قرد قمئ صغير الحجم يسقط.. لكنه لا يبلغ الأرض أبدًا بل يتلاشى..

أخذ إيهاب شهيقًا عميقًا وراح يحاول ألا يصرخ رعبًا أو يغشى عليه. الأمر عسير فعلاً.. كأنك تركب حافلة مزدحمة بالناس وعليك أن تتظاهر بأنه لا أحد فيها..

عندما كان يجتاز العنابر كان يرى بعض المرضى في حالة

مرعبة.. الجفاف على شفاههم وأناملهم ترتجف وعكارة النهاية في عيونهم. هنا كان يسمع غالبًا صوت (تيك توك) يتعالى.. ويرى الضوء الأزرق أو الفيروزي العجيب يشع على الأجسام المحيطة في الفراغ..

وقد تعلم فعلاً أن ما يراه دقيق جدًا.. بعد ساعة أو أكثر قليلاً يمر بالعنبر ليجد الجسد المغطى بالملاءة، وكان يرى حول الجسد بقعة من الظلام بلا ألوان ولا أجسام... هذا شخص قد صار وحده أخيرًا..

تذكر تلك الأسطورة المجرية القديمة عن الرجل الذي رباه الموت منذ كان طفلاً، فلما فارقه صار الفتى طبيبًا نابهًا واحتفظ بقدرته على رؤية الموت دون سواه من الناس.. تعلم أن الموت يدور حول فراش المريض فإذا بلغ رأسه عرف أن المريض ميت لا محالة. هكذا يخبر أقاربه ويوفر عليهم المزيد من المعاناة.. أما إذا لم يبلغ الموت الرأس فلسوف ينجو المريض وعليك أن تبذل أقصى جهد معه. هذا هو ما يحدث هنا تقريبًا...

لهذا عندما جاء ذلك الشاب الأسمر في الفراش المجاور لأبيه، كان قد أجرى جراحة بسيطة في قدمه.. كان مرحًا ظريفًا مليئًا بالحيوية، لكن المشكلة الوحيدة كانت أن ذلك الصوت (تيك توك) ينبعث منه.. دعك من ذلك الوهج الفيروزي. جلس الفتى يتكلم عن صيد السمك في بلدهم وعن هواية شي الذرة في الحقل.. الخ.. ثرثار فعلاً خاصة عندما يكون قد أفاق من البنج منذ ساعتين، لكن (إيهاب) لم يكن يسمع حرفًا... كان عقله يدور ويغرق ويتلوى في مستنقعات أفكاره السوداء.. كان يصطاد أسماك القلق...

خرج في حذر إلى الممر واستوقف ممرضة مارة.. نظرت له في شك فقال لها همسًا:

"الشاب الذي يجاور فراشه فراش أبي.. إن حالته خطيرة.."

كانت متشككة وافترضت على الفور أنه يعاكسها، وهذا شيء طبيعي لأنها تعتبر نفسها فاتنة بما يكفي وإن كان الرجال (معندهمش نظر)، لكنها دخلت الغرفة لتلقي نظرة ، ثم خرجت ومطت شفتيها بما معناه (ظريف جدًا.. لكن أرجوك كف عن التظرف بعض الوقت).

استوقف طبيبًا شابًا يمر بالغرفة، وقال له وهو يرتجف:

"الشاب في الغرفة.. أؤكد لك أنه في حالة خطرة.."

لم يكلف الطبيب نفسه بالتدقيق.. هز رأسه في غيظ وقال ما معناه (حاضر) ثم انصرف..

عاد إيهاب إلى العنبر وجلس ينتظر الأسوأ..

بالفعل حدث هذا كما توقع.. حدث في المساء . فيما بعد قال الأطباء أن جلطة انفصلت من ساق الشاب الأسمر وانحشرت هناك في شريان الرئة مسببة ما يدعى بالسدة الرئوية.. وسرعان ما ساد الظلام هذا القطاع من الغرفة...

لقد تعلم (إيهاب) أن حاسته لا تخطئ غالبًا، وهي كما قلنا ليست نوعًا من الحدس.. بل هي الشعور بما لم يشعر به الآخرون بعد..

كان هذا خطرًا.. ومخيفًا كذلك..

سوف يأتي يوم بلا شك يسمع فيه صوت التيك توك قادمًا من أبيه فماذا يفعل وقتها؟.. وأي كلمات سيقولها للأطباء؟.. لن يصدقوا حرفًا....

هل هذا الصوت واللون الفيروزي حكم نهائي لا رجعة فيه؟.. بمعنى هل هي علامة على قرب الموت أم هي جزء منه؟

أما السؤال الأخطر فهو ما سيشعر به عند اقتراب موته الخاص؟.. ماذا يفعل وماذا يقول عندما يدرك أن صوت تيك توك ينبعث منه هو؟؟؟؟

• • •

رائحة اللوبيا فلابد أنه يوم الخميس......

يقول المحاضر للطلاب:

"سوف نستكمل الموضوع في المحاضرة القادمة.."

وينهض الطلاب متفرقين.. يمكنك أن تميز هذا الوجه المألوف.. نعم.. لم تخنك عيناك . إنه إيهاب.. لقد كبر فعلاً، والأهم أنه صار طالب طب.. لقد قاتل كثيرًا ليكون طالب طب برغم أنه لم يكن من هواة الاستذكار. الشخص المنطوي المتفرد – أو حتى المصاب بداء التوحد - يمكن أن يكون طالبًا عبقريًا لأنه يمضي وقته في الاستذكار، ويمكن أن يكون طالبًا فاشلاً لأنه يمضي وقته في الشرود وملاحقة الخيالات.. كان إيهاب من الطراز الأخير، وأنت تعرف بالطبع أن مبرراته قوية جدًا...

لهذا انتزع نفسه بقوة من عالم الخيالات ليصير من الطراز الأول، وليتمكن من الالتحاق بهذه الكلية، وهناك كان يتابع الدروس بنهم علمي غريب..

سبب ذلك هو أنه يعرف ما سيحدث.. سوف يجلس يومًا مع أبيه ويسمع صوت (تيك توك) ينبعث منه.. سوف يجن وهو يحكي للأطباء معنى ذلك.. سوف يقول لهم إنه يملك موهبة تستبق معرفة الآخرين.. الخ.. بالطبع لن يصدق واحد منهم حرفًا، ولسوف يموت أبوه بينما يموت هو حسرة..

الحل الوحيد الذي تبقى له هو أن يصير هو نفسه طبيبًا، وأن يجيد عمله.. وبالطبع سوف يتخصص في فرع يتيح له أن ينقذ الحياة، فلن يفيد أباه كثيرًا لو صار طبيب عيون أو أنف وأذن وحنجرة!

كان يعتقد أنه تصرف بحكمة.. فقط راح يدعو الله أن يصير طبيبًا حقًا قبل أن تأتي اللحظة الحتمية..

وفي سنة الامتياز بعد التخرج، كان إيهاب قلقًا من السؤال الذي ينغصه منذ البداية..

هل هذا الصوت واللون الفيروزي حكم نهائي لا رجعة فيه؟.. بمعنى هل هي علامة على قرب الموت أم هي جزء منه؟

عرف الإجابة الكاملة عندما كان في قسم الطوارئ..

جاء ذلك الشاب الرياضي الذي يلبس سترة التدريب... لقد شعر بألم عابر في صدره وهو يركض كعادته اليومية. بالطبع لم يهتم أي طبيب شاب بشكوى هذا الفتى.. عندما يشكو الشاب تحت العشرين من قلبه فالسبب غالبًا معدته أو عضلاته، وعندما يشكو الكهل من معدته فالسبب غالبًا قلبه.. هذه هي القاعدة التي ينقصها الحذر، لكنها غالبًا ما تنجح..

"يمكنك أن تطمئن.. إن بعض الدفء سوف يريحك".

كل هذا جميل، لكن (إيهاب) سمع بوضوح صوت (تيك توك) ورأى اللون المشع الغريب يشع من الفتى.. ثمة شيء خطأ هنا..

وأصر على أن يتم عمل تخطيط لقلب الشاب..

النتيجة: بالطبع كان هناك احتشاء في مقدمة القلب. جزء من عضلة القلب قد مات ولسوف يلحق به الفتى غالبًا. وهكذا نقل الفتى للعناية المركزة وتم عمل اللازم..

لم يهتم إيهاب بإطراء الزملاء على كونه يملك حاسة لا تخطئ، وعلى كونه أنقذ حياة الشاب. ما اهتم به هو أن الفتى بدأ يتعافى..

توقف صوت (تيك توك) وعادت الألوان المحيطة بالفتى كما كانت...

لقد فعلها!..

صوت تيك توك ليس علامة على الموت لكنه إنذار.. كأنه جرس مما يتصل بفراش المريض، وهذا يعني أن الفرصة ما زالت قائمة والوقت لم يضع.....

عندما تسمع الصوت وترى الألوان، فلتفعل كل ما بوسعك كي تنقذ الضحية.. لربما استطعت أن تفعل..

رائحة شياط.. إذن اليوم هو الأربعاء..

على كل حال صار الشياط موجودًا في كل يوم، لأن صحة عمته لم تعد تسمح لها بالطهو يوم الجمعة، وبالتالي وقعت المهمة على عاتقه وعاتق أبيه. والنتيجة هي أنهما يأكلان رمادًا طيلة الأسبوع..

النشاط الثاني الذي انهمك به (إيهاب) كان هو محاولة رسم هذا العالم الغريب الذي يراه بدقة أكثر.. ولهذا ابتاع ألوانًا مائية شفافة وقضى ساعات في غرفته يرسم تلك الرؤى الغريبة، وقد حرص هذه المرة على ألا يراها أحد......

تجمع لديه حشد هائل من اللوحات، ولولا تأثيرها المريع لأقام معرضًا مذهلاً.. تذكر قصة الرعب الشهيرة عن الفنان الذي يرى الأهوال رأي العين فيرسمها ويعتبره الناس عبقريًا.. هو يرى هذه العوالم بوضوح.. كل ما يفعله هو أن يرسمها بدقة...

كان يعرف أن أباه لا يدخل غرفته تقريبًا . لا يدخلها أبدًا في الواقع، وعلى الأرجح يتعلق هذا بذكرى أمه أو شيء من هذا القبيل، لهذا علق معظم هذه الصور على جدران غرفته، وحرص على أن يغلق الباب بإحكام عندما يغادر البيت..

لكن هذا التصرف كان أحمق على كل حال..

في تلك الليلة غادر البيت وذهب ليمضي ساعات طويلة لدى صديق له، وفي الثانية صباحًا عاد للدار.. ما إن دنا من باب الحجرة حتى سمع (تيك توك تيك توك!)..

ما معنى هذا؟

فتح الباب بحذر.. فوجد أن الزحام الطيفي بالداخل قد اصطبغ كله بذلك اللون الفيروزي..

الشرفة مفتوحة.. وعلى بابها فوق البساط الذي يتوسط الغرفة كان ذلك اللص راقدًا على ظهره... كان يلهث في لحظات الاحتضار الأخيرة....

كيف عرفت أنه لص من دون الفانلة المخططة الشهيرة وأساور المعدن؟.. لأن الأبرياء لا يتسللون إلى الغرف عبر شرفاتها...

هناك ماسورة مياه جوار الشرفة.. ويبدو أن هذا اللص الأحمق جرب التسلق عليها ليقتحم البيت. النتيجة أنه وجد نفسه في غرفة مغلقة مليئة بتلك اللوحات.. تلك اللمحة من العالم المخيف الذي لا نراه.. لم يكن هناك من ينقذه أو يخفي اللوحات، كما أنه لم يعد قادرًا على الفرار من الشرفة ثانية..

سقط على الأرض، ولابد أنه مر بلحظات شنيعة...

لابد أنه استغاث فلم يسمعه أحد...

هيا معي... ربما استطعنا أن.. نجره خارج الغرفة، والمعلومة التي لم يكن إيهاب يعرفها هي أن اللصوص وزنهم ثقيل جدًا..

ألقاه في الصالة وراح يحاول أن يعيد له الحياة، لكن صوت (تيك توك) استمر حتى توقف فجأة، وانطفأ الكشاف الفيروزي الغامض.....

لقد مات الرجل..

عرف إيهاب أن عليه أولاً أن يزيل كل تلك الرسوم من الجدار قبل أن يطلب الشرطة ويوقظ أباه. أما عن تفسير موت اللص فليجدوه هم.. ليس عليه تفسير سبب موت كل لص يقتحم شقته..

هذه لعبة خطرة جدًا.. قالها لنفسه، ولم يعرف أنها البداية فقط!

• • •

جميلة جدًا هي مي.. خاصة عندما تطرق للأرض مفكرة..

في سن السابعة والعشرين يكون الوقت قد حان كي يجد البحار المرفأ، وكي تتوقف سفينته اللاهثة بعض الوقت، وكان إيهاب قد بلغ السابعة والعشرين...

يوم اخترتك كي ترثيني..

أهديتك مفتاح كياني..

إذ ترحل سفني عن كون

لا يعبأ برحيل سفيني..

جميلة جدًا هي مي.. خاصة عندما تشفى من الحمى وتجلس في الفراش تأكل الجيلي وتضحك. تقول له إنه أنقذ حياتها، فيقول لها إن الكلورامفنيكول هو الذي فعل.

جميلة جدًا هي مي معلمة الابتدائي الشابة، وقد رآها بصعوبة وسط تلك الأطياف المحيطة بها.. كل الأطياف والبالونات والمسوخ والأضواء المتوهجة. لا تعرف مي أن هناك ملايين الأشياء الحية في غرفتها معها.. لو عرفت لماتت ذعرًا..

هناك لكل واحد واحدة.. وقد أدرك إيهاب أنه وجد واحدته أخيرًا..

لا نستطيع أن نسرد كل التفاصيل التي تلت ذلك، والتي جعلته مدلهًا بهواها.. لكن زياراته لها تكررت كثيرًا جدًا بأسباب ملفقة زاعمًا أنه يطمئن عليها أولاً، ثم عرفت أنه يهيم بها حبًا.. حتى جاء اليوم الذي أقنع فيه أباه المسن بأن يصحبه لزيارة أهلها.. أسرة لطيفة متماسكة هي وقد كان إيهاب بحاجة ماسة إلى أسرة تحتضنه وسطها..

لقد صار للحياة مذاق مختلف..

إنه يحب مثل الآخرين، وليس مجرد تلك العين الكئيبة التي ترى الأهوال..

رائحة الشقة شياط.. إذن هو يوم السبت....

تيك توك.. تيك توك..!

هل تسمع؟..

لا جدال في ذلك.. إن الأمر حقيقي تمامًا..

إنهما جالسان في صالون بيتها وبالطبع يجثم أخوها الصغير على روحيهما كعادة أسر الطبقة الوسطى، لكن لا جدال في مصدر الصوت.. هو ليس قادمًا من إيهاب وليس قادمًا من اخيها.. لقد تعلم إيهاب الدرس من قبل، ورأى اللون الأزرق الغامض يتسرب منها ليضيء كل شيء..

ابتلع ريقه الذي صار كالقش.. شرب كوبًا من الماء البارد ثم أعاد الإنصات..

تيك توك... تيك توك..

لا شك في هذا.. الصوت يخرج من مي وهي لا تحمل ساعة أو قنبلة موقوتة.. كان ارتباكه كاملاً، وراح يردد في ذهنه: لماذا أنا؟.. لماذا أنا؟... السيناريو الذي كان يخشاه يحدث فعلاً..

."هل أنت على ما يرام؟"

اتسعت عيناها دهشة وأكدت أنها بخير.. لكن قلقه كان بالغًا وخطر لها أنه يلعب لعبة العاشق المفعم بالقلق على حبيبته: أنت تسعلين؟..

لا.. أنا لا اسعل.. إذن أنا قلق لأنك لا تسعلين..

."هل من ألم في الصدر أو ضيق في التنفس؟"

تيك توك... تيك توك..

لا شك في هذا.. والصوت يتعالى..

لا تعرف كيف ولا متى جذبها من يدها وغادرا البيت.. حتى قبل أن يخبر أهلها أو يصحب أخاها، وانطلق بالسيارة العتيقة التي ابتاعها إلى المستشفى.. قالت محتجة:

."أنا بخير.."

."فقط ثقي بي.."

قالها وهي تتمدد على منضدة الأشعة... قالها وهي تجري فحصًا لقاع العين.. قالها وهي تجري تخطيطًا للقلب.. قالها والممرضة تسحب منها عينات الدم لحشد من التحاليل.. قالها ومختص القلب يفحصها.. قالها ومختص الأمراض العصبية يفحصها..

تيك.. توك .

سوف يجن..

تيك توك..

هذا لا يطاق..

الكل ضحك.. الكل هز رأسه.. الكل قال دعابة سخيفة عن العشق الذي يجعل الطبيب ينسى الطب.. هيء هيء..

كان يعرف يقينًا أنها ستموت.. لا مجال للمزاح هنا.. حاسته لم تخنه قط من قبل، وهو متأكد مما سيحدث...

كان يعرف يقينًا أن موهبته لا تتنبأ.. هذا يعني أن الموت بالحوادث غير وارد في قائمة التحذير. من الممكن أن تدهمها سيارة أو يهوي فوقها سقف البيت ولن يصدر عنها ذلك الصوت، وبرغم هذا كان قلقًا..

عندما غادرا المستشفى قالت له في ضيق:

."هل لي أن أفهم؟ . ظللت صامتة وأنت تلهو معي كفأر تجارب.."

قال في ضيق مماثل:

."لكن جهلت مقالتي فعذلتني.. وعرفت أنك جاهل فعذرتكا!"

لم تفهم سوى أنه يلومها.. على الأقل كلمة (جاهل) معروفة للجميع. قالت وقد بدأت تتنمر:

."لا بأس وشكرًا على تهذيبك.. لكن أظن أن من حقي أن أفهم.."

تيك توك..

تيك توك..

الصوت يتعالى من جديد..

جذبها من يدها لتصعد على الإفريز، فهو لا يضمن ألا تدهمها سيارة مسرعة الآن.. صحيح أن هذا يخالف منطق موهبته لكنه خائف...

فتح لها باب السيارة لتجلس جواره.. ثم أدار المحرك وهو غير

متأكد من موقفه.. فجأة توقف وطلب منها أن تجلس خلفه بالضبط.. حسب دراسته فإن أكثر الأماكن خطرًا هو المجاور للسائق وأكثرها أمنًا ما كان خلفه..

."هل جننت؟.. أنت لا تقود سيارة أجرة!"

."يشرفني أن أفعل.. هل نسيت أن أقول لك إنني أهيم بعشق الفتاة التي تطيع أوامري بلا مناقشة؟"

ماذا لو كان سيتسبب في حادث مروع يقتلها؟.. هذا منطقي جدًا.. يجب أن يكون حذرًا في القيادة.. ما أصعب القيادة وأنت تبالغ في الحذر!.. سوف تشعر كأنك تتعلم..

قال لها وهو يراقب الطريق ويرتجف:

."لم لا تذهبين لزيارة أقاربك بعض أيام؟.. ربما أسبوع أو أكثر.. لا أحب أن تعودي لهذه الدار العتيقة"

دار عتيقة سوف تتصدع الليلة وتهوي لتقتل من فيها.. غالبًا هذا هو ما يحدث...

تيك توك.. تيك توك.. الصوت أعلى... معنى هذا أن الموت يقترب.. أليس هذا منطقيًا؟

قالت له وهي تحاول أن تبدو طبيعية:

."هلا توقفنا لتناول بعض المرطبات؟.. حلقي جاف من كل الفحوص التي أجريت علي.. "

."بالطبع لن نتوقف ..!.. "

سوف يكون العصير مسمومًا أو فاسدًا على الأرجح..

الآن كان قد فعل كل ما من شأنه أن يقنعها بأنه مجنون تمامًا.. لم

يقصر في شيء.. هي تشك فيه بقوة الآن لكن ماذا يعمل؟

قال لها:

"هل ستغيرين مسكنك؟".

نظرت له طويلاً ولم ترد.. هذه نصيحة مهمة: عندما يجن خطيبك فلا تدخلي معه في جدل طويل.. فقط غادري السيارة وعودي لبيتك راجلة...

أما هو فقد كان يصغي بلا توقف إلى صوت تيك توك..

• • •

رائحة السمك المقلي المحترق ما زالت ملتصقة بالشقة؟.. إذن هو الثلاثاء...

طيلة الليل ظل يتصل بها.. كلما مر نصف ساعة يعيد الاتصال فيأتي صوتها المذهول غير المصدق تؤكد أنها بخير..

في النهاية قال لها اعترافًا بسيطًا:

"حلمت أنك والعياذ بالله قد توفيت!".

ليست الحقيقة كلها لكنها أمينة بما يكفي.. نصف حقيقة لو شئنا الدقة، وقد راق لها هذا الاعتراف كثيرًا، وأراحها مؤقتًا.. إذن أنت قلق على لهذا الحد؟.. بدت له بطة فخورًا..

على كل حال لم تدم مكالماته لأن الإرهاق غلبه.. نام في الثالثة صباحًا بعد يوم مفعم بالانفعالات...

في النوم رآها تموت مرارًا بطرق شنيعة صعبة.. دعك من الديناصور الذي عاد للحياة وقضم رأسها، أو الطبق الطائر الذي تعطل فهوى فوقها بالذات..

وعندما صحا من النوم واتصل بها كان الشعور المسيطر عليه هو أنها درة.. درة حقيقية.. الفتاة التي تقبل من خطيبها كل هذا الخبال ولا تغضب أو تتخلى عنه، هي درة نادرة...

ذهب لدارها في ساعة مبكرة عالمًا أن الوقت لن يطول قبل أن يلقي به أخوها او أبوها في الشارع باعتباره مجنونًا.. العاشرة صباحًا ليس وقت زيارة الخطيبة..

كان كل شيء هادئا والعالم الطيفي ليس أكثر ازدحامًا من المعتاد.. جلس في شقتها متظاهرًا بأنه لا يدرك كم هو ضيف غريب الأطوار سمج.. كانت بخير حال ولم تكن الدقات مسموعة.. وفجأة سمع الصوت..

تيك توك..

وبدأ الضوء الأخضر يتوهج منها...

."هل أنت بخير؟"

هذه المرة قالت وهي تضع يدها على جبهتها وترتجف:

."ليس تمامًا.. أشعر بدوار كأن رأسي خفيف... يبدو أنك بعيد النظر.."

ثم بدأت حالتها تزداد سوءًا.. جاءت أمها تبسمل وحملتها للفراش، أما هو فجلس مرتبكًا لا يعرف ما يقول.. لقد قام بكل فحص ممكن أمس فلن يكرر هذا اليوم..

غادر البيت وقرر أن يتصل بها بعد ساعة... جلس على أحد المقاهي بعد الدقائق ثم أعاد الاتصال.. جاء صوت مي الضاحك يعتذر:

."فعلاً انا بلهاء.. آسفة جدًا.. لقد استرددت عافيتي على الفور..."

في الأيام التالية زارها عدة مرات.. الغريب انها كانت تتدهور

عندما يلتقيان.. فعلاً ذبلت صحتها وبدت تحت عينيها هالات سوداء غريبة.. صوت تيك توك لم يكن ينقطع...

أما العبارة التي اعتاد سماعها فهي أنها تحسنت نوعًا بعد انصرافه، ومن الغريب أن هذا صار ملحوظًا لدرجة أن حماته قالت ضاحكة:

"يبدو أن الغرام يسقمها فعلاً عندما تأتي أنت!".

هنا بدأ يفهم الحقيقة ببطء شديد .

جرب أن ينقطع عن زيارتها ثلاثة أيام ففوجئ بأنها صارت في أفضل حال . ازداد وزنها وتورد لونها . وعندما عاد انهارت حتى أنها ظلت في الفراش يومين..

الآن يفهم الحقيقة بوضوح.. هي مريضة جدًا ومهددة بالموت، وسبب مرضها هو إيهاب نفسه!

كان الأمر مذهلاً ولا يصدق، لكنه كان قد قرأ الكثير في هذه الأمور.. ليس الأمر طبيًا لكنه حدث فعلاً من قبل وثمة شواهد تاريخية عليه. لكل إنسان منا هالة خاصة تحيط به Aura.. هناك هالات سلبية تؤذي من حولك.. هي مصابة كما هو واضح بحساسية شديدة تجاه هالته هو، بنفس المنطق الذي يجعل أشخاصًا لا يطيقون رائح عطر معين أو أكل المانجو. العالم (ليدبيتر) وصف هذا المرض بالتفصيل في القرن التاسع عشر، لكن بالطبع هناك من يعتقدون أنه نصاب أو مخرف.. ربما يفسر هذا ما نشعر به أحيانًا من نفور شديد تجاه شخص بعينه بلا تفسير واضح.. الحقيقة أن هالته تؤذينا بشدة... بالنسبة لإيهاب كانت الهالات شيئًا ماديًا حقيقيًا...

أما لماذا تأخر الأمر كل هذا الوقت حتى يعلن عن نفسه فهذه من قواعد فرط التحسس. الفتاة تضع قرطًا ذهبيًا يظل في أذنها أعوامًا

طويلة ثم تظهر الحساسية فتقول لك: مستحيل. لكن الحقيقة هي أن الحساسية كانت تبني نفسها وتتراكم في دمها.

كانت مي تموت ببطء بسببه وقد بدأ جسدها يعلن عن هذا..

تيك توك..

تيك توك..

لقد كان واثقًا من تشخيصه.. وعندما اتصلت به مي عند الظهيرة لم يرد عليها..

اتصلت به يوم الأربعاء.. مساء الخميس.. لم يرد قط...

كانت حائرة لا تفهم ما يحدث، وفاتها أن تدرك أن صحتها تتحسن بلا شك في ذلك.. أما هو فقد أجاد لعبة الاختفاء. عرف كيف يختفي وقتًا كافيًا حتى تحولت دهشتهم وحيرتهم إلى غضب وكبرياء جريحين، وهكذا كفوا عن البحث عنه..

إنه وغد آخر...

هكذا يمكننا أن نفهم الأسباب التي جعلت (إيهاب) يستقل سيارته.. كالمجنون يطوي الطرقات طيًا وقد فتح الكاسيت إلى أعلى درجة له.. كان يرغب في أن يحدث له شيء.. كان يشتهي أن يحدث له شيء.. لا يدري متى ولا كيف اتجه إلى الريف..

يبدو أن الحظ قد ابتسم له، فقد انفجر إطار السيارة وتدحرجت لتسقط في الترعة..

تيك توك..

هذا الصوت ينبعث منه..

لا شك في هذا..

يشبه نبضات القلب العالية مع انسداد الأذن..

تيك توك . والضوء الأخضر يشع....

"الأب استطاع بمعجزة ما أن ينزل الزجاج وهكذا استطاع أن يفتح الباب ويطفو للسطح"

هذه المرة ستكون الأخيرة...

بعد دقيقة جاء فلاحون كثيرون وتعاونوا على إخراج الضحيتين.. لا.. الضحية..

لم يمت وإنما اقترب من ذلك كثيرًا..

وعندما أفاق وهو يرقد على العشب جوار الترعة، وعندما نهض وراح يهز رأسه المبلل ويسعل..عندها فقط أدرك أنه لا يرى أية أطياف.. لا ألوان.. لا أنابيب عملاقة ولا قردة تهبط من أعلى..

لقد صار إنسانًا عاديًا...

فيما بعد عندما عاد لداره من المستشفى، قال لنفسه إن نقص الأكسجين عن الدماغ في المرة الأولى سبب تغيرًا فسيولوجيًا معينًا، وقد زال هذا التغير مع نقص الأكسجين للمرة الثانية. برغم كل شيء هو سعيد لهذا التحول.. كان يصبو إلى أن يعود إنسانًا عاديًا وأن يشعر أنه وحده وليس في حافلة مزدحمة (برغم أن هذا غير صحيح).. يريد ألا يشعر بقرب موت الآخرين.. لو كان قد فقد هذه الموهبة مبكرًا لكان قد استمر في علاقته بمي.. ولربما هلكت.. لكنه يرجح أن هذه الموهبة كانت هي سبب الهالة الغريبة المحيطة به والتي لم تتحملها الفتاة..

"نعم.. أنا سعيد.. لقد صرت شخصًا عاديًا ولست حاويًا في السيرك..."

ثم خطرت له فكرة: ماذا عن الرسوم التي كان يرسمها؟.. هل ما زال منيعًا ضدها أم هي قادرة الآن على إيذائه؟.. لن يعرف الجواب أبدًا إلا لو اطلع على تلك الرسوم من جديد..

للمرة الأولى منذ وفاة ذلك اللص، يبحث إيهاب عن الرسوم التي خبأها في خزانة ثيابه.. يلقي بها على الفراش.. يفرك عينيه ويتأهب لإلقاء نظرة.. نظرة قد تفتك به لكنها ضرورية..

تشجع.. هيا.. واحد.. اثنان.. ثلاثة..

افتح عينيك !

تمت

كـراهيــة

كنت أنا أفكر .. طريقة الموت هذه تبدو مألوفة ...

ثم لحظة .. لماذا كانوا ينظرون لي بهذه الكراهية وهذا المقت في الآونة الأخيرة ؟ .. لماذا قال لي أكثر من واحد أن أكف عن هذا أو لا أفعله ؟.. أفعل ماذا ؟

الإجابة عسيرة التصديق لكنها الإجابة الوحيدة الممكنة للأسف؛ لأنهم رأوني في أحلامهم !

في كليتي لا أحد يحبني..

أعرف أنك تقول إن هذه مشكلتي لا مشكلتك، وهذا حقيقي، لكن المرء يتوقع دومًا أن يجد واحدًا أو اثنين يستلطفانه أو يحبان وجوده. مهما كنت سمجًا أو قبيحًا أو منفرًا فلابد أن يحبك أحد.. لابد أن يشرق وجه أحدهم عندما يقابلك في الصباح. هتلر كان له أصدقاء وكانت له حبيبة صممت على أن تموت معه...

ما عداي أنا..

يجب أن أقول هنا إنني لا أملك أية ملكات اجتماعية وليست لدي المواهب التي تجذب الناس. لكم من واحد جلست معه فإذا بي صامت كالقبر. ينتظر أن أقول شيئًا فلا أقول، وأجيب عن كلامه بأسخف الأجوبة طرًا.. إن (مممم) و (ههههه) ليستا إجابتين يعترف بهما الناس كما تعلم. أما مع الفتيات فالأمر يزداد سوءًا لأنني – ككل الحساسين المتوحدين – أحمل تقديسًا زائدًا للأنثى، من ثم أتصرف معها كأنني وثني يقف أمام صنم. تهيب.. وصمت...

أعترف هنا أنني وسيم ، ولكم من فتاة تقربت مني وراحت تحاول أن تحصل مني على أية استجابة أو كلمة ما، لكني أظل صامتًا كالصخرة.. أنظر لها في رعب ثم أنظر للأرض وأفر..

لقد اعتدت أن أجد عالمي الحقيقي في الكتب وفي أحلام اليقظة. فقط في أحلام اليقظة خاطبت الجماهير بلسان فصيح، وتقربت لأجمل بنات الأرض قائلاً شعرًا لا يقدر (إمرؤ القيس) على نظمه. كنت فاكهة الحفلات، وعندما حاصرني قطاع الطريق مع فتاتي امتشقت سيفي وجندلتهم..

مع الوقت اكتسبت شيئًا من الكبرياء، فلم أعد أريد شيئًا من عالمهم الواقعي وصرت أراه تافهًا سخيفًا . كل هذا معقول ومفهوم..

ولكن القصة بدأت تكتسب أبعادًا جديدة مؤخرًا..

سأقول لك كيف...

• • •

أنا طالب في كلية العلوم كما تعرف .

كان هذا هو يوم الأربعاء الذي نتأخر فيه كثيرًا بسبب المجموعات الدراسية الصغيرة التي نطلق عليها (السكاشن). كنا في مختبر النبات وقد تلفت عيوننا من فرط الحملقة عبر عدسة المجهر إلى المقطع العرضي في ساق نباتية قمنا بتقطيعها. لا تنس أننا لم نتعلم بعد إغلاق العين التي لا تنظر عبر العدسة. رفعت عيني وقد أصبت بالحول لأجد أنني أحدق في عيني المعيد الشاب المسئول عنا. توقعت أنه سيصدر لي تعليمات معينة، لكنه ظل ينظر لي نظرة لم أر مثلها من قبل.. نظرة كراهية ومقت توشك أن تقتلني..

سألته في حيرة:

- "هل من مشكلة يا سيدي؟"

لم يرد وواصل النظر لي، ثم استعاد صوابه، فألقى نظرة عبر العدسة وامتعض وجهه وقال:

- "مقطع سميك جدًا . جرب مرة أخرى .."

وابتعد وعيناه لا تفارقانني..

اسمه (ممدوح).. لا أعتقد أن هناك مشكلة ما بيننا، ولكن ما أكثر المشاكل التي وقعت فيها بلا سبب في حياتي. هناك تقلص معين في زاوية فمي تلقيت عليه الكثير من اللوم والضرب منذ كنت في المدرسة الابتدائية؛ لأن كل معلم كان يفترض أنني أسخر منه بشكل خفي..

استدرت إلى اليمين فوجدت (لمياء) زميلتي في الصف...

لم تكن تنظر في العدسة.. كانت تنظر لي.. تقلصت زاوية فمها بدورها لكن في كراهية شديدة. لقد ضغطت بأسنانها أكثر من اللازم حتى تكورت شفتها إلى جنب.. لم أر في حياتي هذا المقت من قبل.... من المدهش أنني لم أمت وأن شفتها لم تتمزق..

..

قلت لها في ارتباك:

"صباح الخير".

فلم ترد.. كان صدرها يعلو ويهبط غلاً...

نهضت لأغسل يدي عند الحوض، فأجفل الفتى الذي كان يغسل يده.. كان فتى نحيلاً يدعى (محمود).. رأيته ينظر لي وتتسع عيناه ثم يتراجع.. يتراجع لدرجة أنه كاد يوقع واحدًا يقف خلفه..

ماذا يحدث هنا؟

نظرت لانعكاس وجهي في زجاج النافذة.. كان الظلام قد بدأ يهبط وأناروا الضوء الكهربي في المختبر، ذلك التأثير الذي يشعرني دومًا بتقلص في معدتي، لذا تحول الزجاج لمرآة ممتازة... هل صار لوني أخضر؟.. هل صرت الشيطان وأنا لا أعرف؟

لا شيء.. ذات الوجه الوسيم يطالعني عبر الزجاج..

لكن من خلفي رأيت تلك الفتاة – وتدعى (جاكلين) – تنظر لي نظرة نارية.. نظرة من لا يتحمل فكرة وجودي في العالم...

• • •

لم أحب كثيرًا هذا العالم من نظرات الكراهية. مهما بلغ استغناؤنا عن الآخرين فنحن أطفال نحتاج للقبول الاجتماعي، وأن تطلب المعلمة من الفصل أن يصفق لنا..

لكني كنت مستعدًا لقبول ذلك لو فهمت سببه. على كل حال قدرت أن هناك أيامًا تكون فيها ثقيلي الظل على الآخرين.. هناك أيام تلقي فيها التحية فلا يرد عليك أحد. هذا شيء مفروغ منه.

عدت لداري فتناولت طعام الغداء الذي هو العشاء كذلك، وتبادلت بعض كلمات مع أبي وأمي المسنين قليلي الحركة. في الحمام أعدت تأمل وجهي في المرآة عدة مرات.. لا يوجد شيء غريب. ثم دخلت فراشي المريح.. أجمل مكان في العالم في رأيي.. هناك رحت أقرأ لمدة ساعتين.. ساعة إعدادًا لدروس الغد وساعة في أدب كويليو ثم أخلدت للنوم.

أنا مكروه.. أنا مكروه.. الناس لا تحبني... أنا..............

خ خ خ خ خ!

في الصباح هرعت أثب في المواصلات إلى الكلية كعادتي. على باب الكلية كان رجل الأمن (بسيوني) يقف ويدخن لفافة تبغ. مددت يدي لأخرج الكارنيه ورفعته في وجهه لكني فوجئت بنظراته المتصلبة. كانت عيناه شاخصتين إلى وجهي وقد بدا عليه مزيج فريد من الذعر والكراهية.. لو أنه رأى ثعبانًا في فراشه لما بدت في عينيه هذه النظرة..

وقبل أن أسأله عن شيء قال وهو يشير للداخل:

"يا لله.. مع السلامة..".

هل هو يوم آخر من أيام الكراهية؟....

في درس الحيوان الذي بدأنا به اليوم، تلقيت المزيد من نظريات الكراهية من (لمياء).. من (جاكلين).. من (محمود).. هناك فتى مذعور اسمه (صلاح) ظل يحملق في للحظات، ثم طلب أن يتكلم معي.. جميل.. ماذا تريد؟

قال وهو يحاول ألا تلتقي عينانا:

"أنت.. تعرف.. أن.. هذه الأمور.....لا أعرف كيف أشرح...."

ثم ابتلع ريقه وقال:

"أرجو أن تكف عن هذا.."

"أكف عن ماذا؟"

عاد يكرر وهو يلوح بإصبعه محذرًا:

"كف عنه.. لن أشرح أكثر.. أنت تفهم !"

فجأة صارت الحياة ذات طابع (كافكاوي) لا شك فيه. لن أندهش لو جاء اثنان مكلفان بإعدامي وهما لا يعرفان السبب ولا أنا. فقط يأخذانني إلى الفناء الخلفي ويذبحانني.

استمر هذا الوضع الغريب أسبوعًا، ثم دخلت الكلية ذات صباح لأجد جوًا عامًا من الوجوم في مجموعتي الدراسية.. الورقة المعلقة هناك تقول:

"توفي الزميل (صلاح شوقي) اليوم، والجنازة بعد صلاة الظهر في.............."

أصابني الذهول فاستدرت لزميل واقف هناك وسألته عما حدث فقال دامع العينين:

"لم يصح من نومه.. ليرحمه الله.. ليتنا نتعظ بأن الموت يأتي فجأة وبلا إنذار"

وتعالت بعض نهنهات البكاء، وبدت بعض الفتيات وقد سال الكحل من عيونهن واحمرت الأنوف، كأنهن مهرجو السيرك. إنه محظوظ. أنا أضمن أن أحدًا لن يبكي علي.. مع كل هذه الكراهية سوف يفجرون الصواريخ ومفرقعات العيد يوم تعلق ورقتي الخاصة..

صحيح أن الموت يأتي فجأة، لكن هذا التفسير لا يرضي أي وكيل

نيابة أو رجل شرطة.. لابد من أسباب منطقية واضحة لوفاة طالب ما زالت أجهزة جسده كلها براقة جديدة نشطة..

عادت الحياة إلى طابعها المعتاد ببطء شديد، وهو الطابع العام للوفاة على كل حال.. في أول يوم أهل المتوفى مصدومون هدتهم اللوعة.. في ثاني يوم هناك جو من الهدوء الراضي بالنصيب مع ابتسامات حذرة حزينة . في ثالث يوم هم يتشاجرون على الميراث وقد نسوا كل شيء عن الفقيد العزيز !

كنت جالسًا في الحديقة المزدحمة ألتهم شطيرة وأعيد نسخ بعض المحاضرات، عندما ظهرت تلك الفتاة (جاكلين). إنها جميلة لكنها من الطراز العصبي المتشكك وعيناها تتوقعان مصيبة طيلة الوقت. جاءت لتقف جواري.. وظلت صامتة للحظات وإن بدا أنها تريد أن تقول شيئًا.. ثم استجمعت شجاعتها وجاءت لي لتقول:

."أرجوك ألا تفعل !!"

رفعت عيني نحوها وفمي مليء بالطعام وتساءلت:

."لا أفعل ماذا؟"

قالت في عناد:

."هذا الذي تفعله..!.. إن لي أخًا ضابطًا وسوف.. سوف... سوف يلقنك درسًا.."

ثم انطلقت تركض مبتعدة.. وأنا في أغبى حالاتي..

ماذا يحدث هنا؟

بما انك تعرف أن (جاكلين) ماتت في فراشها صبيحة اليوم التالي، فأنت تدرك مدى دهشتي وذهولي.. وعلى كل حال كانت هذه هي البداية...

• • •

كانت هذه الأحداث أكثر من أن تكون مصادفات، لكن كيف يمكنك تفسيرها إلا أنها مصادفات؟..

في تلك الليلة أفرطت كثيرًا في شرب الماء قبل النوم، ثم شربت بعض ماء الشعير بالصودا ودخلت الفراش.. بالطبع كانت هذه هي الطريقة المثلى كي أصحو من نومي عدة مرات لأفرغ مثانتي، ثم أعود للفراش بين النوم واليقظة فأندس فيه لبعض الوقت.

عامة أنا لا أتذكر أحلامي.. يبدو أنني أفيق في المرحلة الخطأ من النوم حيث تتبخر الأحلام، ولهذا أندهش من الناس الذين يقصون عليك حلمًا مدته ساعة أو ساعتان بكل التفاصيل، واعتقد أنهم يحكون ما تخيلوا أنهم رأوه.. كل الناس تحب أن تعتقد أنها شفافة وأنها (ترى رؤى كاملة). لكني في تلك الليلة بالذات نهضت كثيرًا جدًا وفي لحظات استراتيجية، وهكذا كنت أدخل الحمام شاعرًا أنني ما زلت في عالم الحلم..

كنت أرى نفسي قويًا جدًا غاضبًا جدًا.. هأنذا أركض بين طرقات ضيقة في قرية أو مدينة ما.. هناك كلاب تنبح في وجهي ثم تتراجع ذعرًا.. إنني أريده.. لن يفر.

هناك رأيته يركض في حقل مفتوح. ذلك المعيد الشاب (ممدوح) الذي يدرس لنا علم النبات.. كان ينظر للخلف ويتعثر.. يتوسل لي.. أنا أركض كالمجنون.. لسبب ما ألحق به برغم أن المسافة طويلة جدًا، لكن في عالم الأحلام لا يوجد قانون فيزيائي محترم...

"كف عن هذا.. أنا لم أفعل لك شيئًا !!".

ثم ينفجر في البكاء....

يتكرر الحلم من جديد لكن تفاصيل جديدة تولد. إنه يلوح بفأس في وجهي ويهوي به . فجأة يدي تمسك بمعصمه كأنها كلاب حديدي.. اسمع العظام تتهشم..

أصحو من نومي شاعرًا بإلحاح المثانة المليئة.. أدخل الحمام ويدي ما زالت متقلصة من اعتصار معصمه.. صوت العظام المهشمة في أذني..

أعود للفراش.. هذه المرة هو قد سقط تحتي. أنا أعتصر عنقه ثم أضرب رأسه في الأرض الرخامية عدة مرات.. من أين جاءت الأرض الرخامية في الحقل؟.. لا تسأل فخواص التربة علم آخر لا يُحترم في الأحلام..

هذه المرة فتحت عيني لأرى ضوء الفجر يتسلل.. ثم غبت في النوم..

• • •

يؤسفنا يا شباب أن د. (ممدوح) قد توفي.. نعم.. هذه الكلية قد شهدت الكثير من الأحداث المؤسفة مؤخرًا ويبدو أننا نمر بدائرة نحس لا شك فيها. واحد آخر لم يصح من النوم.. سوف تجهز الكلية حافلة صغيرة لمن يريدون الذهاب للجنازة.. نسأل الله أن يجعلها آخر الأحزان..

تصاعدت الشهقات.. مستحيل هذا.. ليس هذا الكم.. وفتاة بكت وقد تذكرت (جاكلين) صديقتها العزيزة. واحد فقط لم يبك هو أنا..

لو كنت كعامة الناس لقلت إنني شفاف أملك قدرة على رؤية الغد. لكنني لا أملك أي نوع من الشفافية.. أنا مادي جدًا ولا أعتقد أنني رزقت القدرة على التنبؤ بمن هم موشكون على الموت. لكن الحقيقة المؤكدة هي أن المعيد الشاب مات في حلمي في ذات الوقت الذي مات فيه في فراشه تقريبًا.

هناك كانوا واقفين حول واحد منهم.. عندما دنوت عرفت من هو.. (مروان) أخو الفقيد.. إنه طالب في ذات الكلية. كان يحكي لهم ما شهده من مصرع أخيه:

"كان يلهث ويتكلم أثناء النوم .. وفجأة بدأ يضرب رأسه في الوسادة عدة مرات – وكان نائمًا على ظهره – ثم همد تمامًا.. وعندما تحسست عنقه أدركت أنه.. أنه لبى نداء ربه"

قال أحدهم:

"لعله آذى رأسه من فرط ضربها".

"لا أحد يموت لأنه ضرب رأسه بالوسادة".

كنت أنا أفكر.. طريقة الموت هذه تبدو مألوفة...

ثم لحظة.. لماذا كانوا ينظرون لي بهذه الكراهية وهذا المقت في الآونة الأخيرة؟.. لماذا قال لي أكثر من واحد أن أكف عن هذا أو لا أفعله؟.. أفعل ماذا؟

الإجابة عسيرة التصديق لكنها الإجابة الوحيدة الممكنة للأسف: لأنهم رأوني في أحلامهم!

• • •

كان علي أن أعرف..

عند المساء فعلت ما اقترحه صديقي طالب الطب، وهو أن آخذ قرصًا من (الفروسيمايد) المدر قبل النوم. هذا سيجعل نومي جحيمًا متقطعًا. أخشى أن أجرب ضبط المنبه لأن صوته سيتدخل في الحلم..

في الفراش رقدت أفكر.. ما معنى هذا كله؟..

لا أعرف متى نمت، لكني رأيتني في المنام بوضوح شديد.. كانت شقة.. شقة (لمياء) زميلتي.. عرفت هذا دون كلام. وكانت تتراجع بظهرها في ذعر نحو الجدار وهي تلوح بسكين عملاقة، وتصرخ بي:

"إياك أن تتقدم.. سوف أمزقك!".

لكني كنت في الحلم واثقًا جدًا على درجة من السخرية، وكنت

أتقدم نحوها في بطء كما يفعل سفاحو الأفلام، وكنت أعرف أني أحمل سيفًا مما يسمونه (سنجة)..

هنا شعرت أن مثانتي موشكة على الانفجار، فهرعت للحمام ولهذا لم يتبخر الحلم.

عدت للنوم.. هذه المرة كانت هي تقف على إفريز بناية عالية تطل على الشارع، وقد ألصقت ظهرها بالجدار وهي تصرخ بلا انقطاع.. شعرها يطير مع الريح... السيارات في الشارع مجرد حشرات مضيئة لا تهمد. أنا أنظر لها من النافذة، ثم أتخذ قراري وأرفع ركبتي لأخطو خارج النافذة وأمشي على الإفريز بدوري..

"اسمع !... سوف أثب.. أقسم بالله أنني سأثب !!".

هنا صحوت من جديد..

وقفت في ظلام الردهة بعض الوقت أفكر..

لسبب ما قررت ألا أواصل النوم هذه الليلة.. لم أرد أن أعرف ما سيحدث بعد هذا. فتحت الشرفة في غرفتي وأعددت كوبًا من الشاي الثقيل، وجلست أقرأ في مادة وظائف الأعضاء. إن الفجر قريب . وسوف يصحو أبي من النوم، وهكذا يمكن أن أظل متيقظًا حتى موعد الكلية..

لسبب ما لا أريد أن أنام ثانية..

• • •

محمر العينين انتهيت من سماع المحاضرة فغادرت القاعة ووقفت بالخارج .

(لمياء) كانت خارجة من المدرج مع صديقتها وكانت تضحك فلما رأتني تقلص وجهها وبدا لي أنها ترى ضبعًا متعفنًا مات وهو يأكل خنزيرًا. مرت جواري مسرعة فناديتها.. نظرت لي بكراهية فقلت:

- "لابد من كلمتين معك."

انفصلت عن صديقتها، ووقفت أمامي وعقدت ذراعيها على صدرها في تحد:

- "أفندم؟"

- "لابد أن أفهم سبب هذه الكراهية التي تنظرين بها لي.."

قالت في تحد:

- "وهل كنت مدلهة في هواك من قبل؟"

- "لا.. لكن هناك وضعًا وسيطًا.. لنقل إنك كنت تتعاملين معي بعدم اكتراث، فماذا قد جد؟"

صمتت.. بالطبع لا يمكن أن تقول.. سألتها على سبيل الاختبار:

- "الأمر يتعلق بالأحلام؟"

هنا كان رد فعلها معقدًا وغير متوقع.. لقد تقلص وجهها وقالت بصوت كالفحيح:

- "أنت هناك دومًا.. تطاردني.. تلاحقني.. تتلصص علي من النافذة وتلتقط لي الصور.. تطاردني عبر الهاتف.. نفسك مليئة بالأغراض القذرة التي أنا بطلتها. لما تمنعت عنك صرت تلاحقني لتقتلني.. في كل ليلة أنت هناك تلاحقني.. في الشوارع.. في الكلية.. في حجرات منزلي.."

- "وهل حقًا تلومينني على أشياء أفعلها في أحلامك؟"

قالت العبارة التي كنت أخشاها وأعرف أنها ستقولها:

- "أنا كائن نقي شفاف، وأعرف أن رؤيتك تتصرف هكذا في أحلامي معناها أن هذه هي حقيقتك القذرة.. أنت تتصنع التهذيب والانطواء لكن أحلامي كشفت حقيقتك، وأنا أنذرك.. ابتعد عني.. ابتعد عني فأنا لست هينة.."

كدت أجن.. عندما يعتقد الناس أنهم شفافون يصير من المستحيل أن تستخدم المنطق معهم. لو أنني حلمت بابن خالتي - الذي لم أره منذ عشرة أعوام - يركلني، فعلى من يقع اللوم؟.. عليّ أم على ابن خالتي؟.. الشفافون يعتقدون أن اللوم على ابن خالتي.

قلت لها في تعب:

"أخشى أننا في ورطة.. أنا لست مسئولاً عن أي شيء ترينه في أحلامك، لكني أعتقد أن المشكلة أعقد من هذا.. هل تتعلق أحلامك مؤخرًا بمطاردة على إفريز بناية جوار نافذة؟"

نظرت لي في ذهول وقالت:

"كيف عرفت؟.. إذن أنت كنت هناك !"

الحقيقة أن في كلامها منطقًا لا بأس به.. فعلاً أنا كنت هناك..

لم يكن أنا بالضبط لكنه ذلك الكيان الغامض الشبيه بي، الذي يرتحل في أحلامي ليدخل أحلام الآخرين. ولماذا يفعل ذلك؟.. على الأرجح ليحقق رغبات مكبوتة لا أعرف أنها عندي.. لهذا أنا في الحلم أكثر قوة وشرًا وأكثر ثقة.. هذه أشياء لا أملكها في عالم الواقع، والحلم كما تعرفون أهم جلسة علاج نفسي مجاني في تاريخ علم النفس.

أنا لست مجنونًا.. (لمياء) دليل حي على أنني لست مجنونًا.. لكن هذا يعني أنني أعاني ما هو أسوأ من الجنون.. أنا سفاح لكن هذا يتم برغم إرادتي !!

• • •

قالت لي لمياء ضاغطة على أسنانها:

"اسمع.. أنا أعرف بالضبط ما سيحدث.. أنت تحاول دفعي دفعًا لأسقط من فوق ذلك الإفريز. في الصباح سوف يعلقون ورقة في الكلية

تنعي الزميلة الفاضلة (لمياء البهي) التي ماتت أثناء نومها. أنا لا أنوي ذلك.. يجب أن تتصرف.."

قلت لها في صدق:

"ما أريد قوله وبقلب سليم، هو إنني لا أريد ذلك مطلقًا.. إن كان هناك كيان قد تحرر مني أثناء الحلم فأنا لا أعرف شيئًا عنه".

"لن تعزيني هذه التفسيرات.. منذ شهر وأنت كابوس حي ماثل أمامي ولا أعرف كيف أتخلص منه".

ثم ابتعدت غاضبة..

هكذا عدت إلى البيت.. كنت أعرف أنني على الأرجح سأفعلها هذه الليلة. أنت تعرف ذروة الفيلم عندما تقترب وتدرك أن النهاية قريبة.. (لمياء) ستموت الليلة لو حلمت.

وضع غريب هو أن يعرف طرفان أن أحدهما سيقتل الآخر الليلة، وكلاهما لا يعرف ما يمكن عمله.

جلست في البيت ورحت أشرب جالونات من القهوة.. لن أنام.. لن أنام.. جلبت كتب الكلية وقررت أن أمر على جميع المقررات. سوف أنام صباحًا عندما لا تكون هي نائمة.. أعتقد أن هذا أفضل الحلول الممكنة..

في الثالثة بعد منتصف الليل لم تستطع القهوة أن تفعل أكثر، وسقط رأسي على الكتاب وشعرت بنشوة عظيمة..

كانت هناك على الإفريز وهي تمشي خطوة جانبية تلو أخرى.. تقول لي وهي تصرخ لأن الريح تبدد صوتها:

"كف عن هذا !.. قلت لك كف عن هذا..!!".

لكني أواصل التقدم ومن الغريب أنني أمشي بسلاسة عجيبة، ولا يوجد أي خطر من فقدان التوازن ولا خوف من المرتفعات.

ما هذا؟.. إنني أفك حزامي وأطوح به نحوها.. حزام غريب جدًا يستطيل ليبلغها فلا يمكن أن يقل طوله عن خمسة أمتار.. تصرخ ويلسع الحزام وجهها لكنها تتماسك...

هنا صحوت لأجد رأسي على الكتاب وقد بللته باللعاب.. حدث ما كنت أخشاه وحلمت !

هكذا ارتديت ثيابي وتسللت خلسة إلى خارج البيت، وقررت أن أمضي الليل في الشوارع. حي الحسين لا ينام ولسوف يكون بوسعي أن أنتقل من مقهى لآخر.

عندما بدأ الصباح يتثاءب كنت في طريقي للبيت وقد قدرت أنها على الأرجح ذهبتْ للكلية الآن.. وعلي كذلك أن أجيب عن أسئلة أبي المذعور الذي لا يفهم أين ذهبت في ساعة كهذه. لن تكون هناك كلية لي اليوم ولا في أي يوم آخر غالبًا.

ما هو الحل؟.. متى ينتهي هذا الكابوس؟.. هناك حل سهل هو أن أعلق أنشوطة في الحمام وأتدلى منها، لكني لن أفر من الكوابيس لألجأ للانتحار. ليس أنا. ثم من أدراني أن ذلك الكيان لن يتحرر بعد موتي ويدخل عالمها؟

على كل حال سوف أظفر الآن بساعات طويلة من النوم، ولسوف يكون بوسعي قضاء ليلة أخرى متيقظًا..

سأنااام...

• • •

الجزء التالي من مذكرات (لمياء البهي):

لم أنم ليلة أمس.. قضيت الليل كله أجرع القهوة مصممة على ألا أنام فأقابل هذا الفتى ثانية، وهكذا – في الثامنة صباحًا – تناولت وجبة

إفطار دسمة، ثم دخلت إلى الفراش. كان أول شيء رأيته هو إنه ينتظرني على إفريز النافذة!

كنت أشعر بحقد شديد نحوه.. إذن هو ينام في ذات الوقت وفكر في ذات الفكرة؟

في اللحظة التالية كنت أركض وسط الثلوج..متاهة حقيقية تذكرني بالتي رأيتها في فيلم (تألق) لستانلي كوبريك.. لا يمكنك الخروج ما لم تر المشهد من منظور (عين الطائر). لا أعرف كيف انتقلت هناك. لكنه كان يركض خلفي والبخار يخرج من فمه ولا يكف عن اللهاث.. يحمل منشارًا ترددياً مثل أبطال أفلام الرعب الذين أعرفهم. سوف يشطرني إلى نصفين...

لن يفتك بي هذا المجنون.. لن ألحق بمن هلكوا من قبل..

ركضت كثيرًا ثم تواريت وراء جدار ثلجي . خطر ببالي أن أضلله. انتظرت قليلاً فوجدت أنه لم يلحق بي.. هكذا اتبعت التقنية التي رأيتها في فيلم (تألق).. مشيت على خطوات أقدامي المحفورة في الثلج بالعكس.. ثم وثبت بين جدارين وتواريت..

سمعت أنفاسه اللاهثة وهو يركض.. ثم يغير اتجاهه.. لقد التقط الطعم.

إن للنساء حاسة اتجاه ممتازة.. هكذا استطعت أن أجد طريقي إلى خارج المتاهة ووقفت ألهث وأنا أرمق الجدران الثلجية، والبخار المتصاعد من فمي ليتكاثف على أطراف شعري..

يبدو أنه ضل طريقه...

نمت حتى المساء ولم أره في أحلامي ثانية..

في اليوم التالي ذهبت للكلية، فلم أره..

كانت هناك حركة أكثر من اللازم ووجوه واجمة. سألت عما حدث فعرفت أن زميلنا (أشرف) ذلك الشاب الخجول المنطوي في حالة غيبوبة.. لم يمت لكنه في غيبوبة لا يمكن أن يفيق منها. إنه في المستشفى والأطباء في حالة حيرة. ثمة إشاعة عن أن هناك وباء التهاب مخي في كليتنا.. هذا هو التفسير الوحيد لكل هذا الذي يدور مؤخرًا.. ثمة لجنة من وزارة الصحة قادمة.

"أنت لست قلقة؟".

وكيف أكون قلقة وأنا أعرف التفسير الوحيد لما حدث. لقد ضاع (أشرف) في أحلامي.. ضاع للأبد ولن يعود ثانية.. إنه في تلك المتاهة يصرخ ويحاول الخروج بلا جدوى.

لا أعرف إن كنت قد ظلمته أم لا.. لكني لا أنكر أنني سعيدة بالخلاص منه.. لا أنكر أنه كان خطرًا على الآخرين. وللمرة الأولى منذ شهر سأنام غير خائفة. فقط أخشى ذلك الاحتمال الضعيف أن يتحرر.. وعندئذ...... لكن لا أعتقد أنه سيفعل ذلك.

تصبحون على خير.

تمت

شخص مهم

لم يصدق حرفًا لكن .. ربما كان هذا هو التفسير الوحيد لظهورهم في غرفته والباب مغلق. لو كان كلامهم صحيحًا فمعنى هذا أنه محق بصدد نفسه .. إنه شخص مهم جدًا .. مهم لدرجة أن يعكف خمسة أفراد على التقاط الصور له وجمع أقلامه ومناديله .. مهم لدرجة أن يتسللوا لغرفته ليصوروه وهو نائم ليلاً..

لكي نفهم ما حدث، لابد أن نحكي القصة من بدايتها.. لا يمكن أن نبدأ باللقاء الأخير بين (ثروت) و(دافني) أو ما سمعه من (أدونيس). هذه أشياء سوف يأتي وقتها لكن لا يمكن أن نبدأ بها.. ألا ترى أننا نضيع الوقت في الجدل بينما هو قصير أصلاً ؟.. لو كنت تريد أن أحكي القصة بالأسلوب الذي يروق لك، فإنه لمما يسرني أن تجلس أنت وتحكي بينما أصغي أنا.. من فضلك دع لي هامشًا من الحرية في السرد، وأنا أعدك بأن تفهم كيف تطورت الأمور..

أنت تعرف (ثروت البربري)... عينان ملونتان لهما لون البرسيم، وشعر بني مجعد، وقامة نحيلة. الطبيب الشاب المفعم بالأحلام والذي يعرف يقينًا أنه سيكون رائعًا وسوف يبهر العالم.. ربما يحكمه كذلك..

هنا يجب أن نقول إن نمط (ثروت) شائع نوعًا بين الأطباء، فهو من أصل ريفي.. ومنذ دخل كلية الطب نال احترامًا ووضعًا مرموقًا جدًا في قريته. إنه يفحص المرضى بقلب جريء ويكتب العلاج لهم منذ أول يوم له في الكلية، وبالطبع يرتكب أخطاء قاتلة، ثم مع الوقت بدأ يتكلم.. يتكلم في السياسة والدين والأدب والفلسفة، وكان يتكلم بلا أية خلفية ثقافية أو قراءات يستند إليها. لكنه تعلم أن الناس يصغون له باهتمام واحترام.. إن (الدكتور) يتكلم فانصتوا..

إنه الخلط المعتاد في مجتمعنا حينما يفترض أن المتفوق في دراسته مثقف حاد البصيرة كذلك. وهكذا كانت آراؤه تتخذ صيغة شبه مقدسة، ولكم من مرة جلس رجال واسعو الخبرة شابت شعورهم وشواربهم يتناقشون في قضية ما، ثم يلتفتون نحوه قائلين:

"فلنسمع رأي الدكتور في هذا.."

كان يتنحنح ويتكلم في وقار.. يقول أي شيء، فكانوا يوافقون على كلامه في احترام..

مع الوقت ازداد جهلاً وضيق أفق.. و ازداد غرورًا كذلك.. وبدأ يظهر تململاً كلما سمع مناقشة تدور أمامه في أي موضوع، كأن لسان حاله يقول:

".لم لا تصمتون وتصغون لصوت الحجا ؟"

يجب أن يستنوا القوانين التي تجعله هو المتكلم الوحيد..

كنت أنا طالبًا في كلية التجارة، وقد عرفته عن طريق مسكن للطلاب المغتربين، فأثار دهشتي أنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق. ذات مرة عرض التلفزيون فيلمًا أمريكيًا عميقًا شديد الأهمية والتعقيد، فجلسنا نتكلم عنه.. هنا تدخل ليبدي رأيه.. كتمت ضحكتي بصعوبة وأنا اسمع آراءه الساذجة في الفن، ورؤيته (العميقة) للفيلم.

لكن أثار دهشتي أن رفاقي يصغون له باحترام، ويؤمنون على كلامه.

مهما قيل فإن المصري يحمل احترامًا عميقًا تاريخيًا للطبيب والضابط والقاضي.. مع ترجيح كفة العقل بالنسبة للطبيب لأنه لا يمكن أن ينال شخص كل هذه الدرجات في امتحان الثانوية العامة ما لم يكن حكيمًا.. وهو خلط واضح بين ملكة الحفظ وسعة الإطلاع والثقافة والذكاء..

هكذا عرفت (ثروت).. وهكذا كانت بيننا صداقة سطحية لأنني بصراحة لا أطيق الأغبياء.. قد أقبل الجهلة إذا كانوا أذكياء، وهذا نمط لقيته كثيرًا.. مثل بواب البناية التي أقيم بها، ومثل تلك البائعة في السوق التي تشع عيناها ذكاء وألمعية.

تخرجنا وتفرقت السبل، فلم أعرف هذه التفاصيل إلا متأخرًا جدًا، ومن فمه شخصيًا.

كانت البداية هي أنه عندما ينام يشعر بأنه ليس وحيدًا.

كان طبيبًا مقيمًا للتحاليل الطبية (الباثولوجيا الإكلينيكية) في مستشفى تعليمي بالقاهرة، وكانت الظروف تضطره أحيانًا أن ينام وحده في الطابق كله.

يقول إنه كان يشعر بأن هناك من يقفون حول فراشه. نهض أكثر من مرة مذعورًا وبسمل وحوقل ونظر حوله فلم ير أحدًا. في بعض المرات سمع من يتكلمون.. والأغرب أنه سمع مرارًا صوت:

كليك.. كليك.. كليك..

أما عن اختفاء الأشياء فهذا موضوع آخر. السماعة الطبية التي سرقت منه على سبيل المثال، سرقت من جوار فراشه وهو نائم. لم يسرق منه شيء من قبل، وهو يعرف يقينًا أن الغرفة كانت مغلقة من الداخل، ولكنه صحا من النوم فلم يجدها. هذا لغز بلا حل..

هناك كذلك فقدان المناديل والأقلام.. تقريبًا لم يعد يوم يمر من دون أن يكتشف نقصًا في مناديله أو أقلامه. الأقلام لا تعيش في أية مستشفى ومن المستحيل أن تمضي اليوم بذات القلم، لكن الأمر كان يتجاوز الحدود المعروفة.

هكذا بدأ يشعر بقلق عظيم.

• • •

أعتقد أن (ثروت) كان سيلاحظ ما هو أكثر لو كان أقل غباء وضيق أفق.

على أنه في المستشفى لاحظ أن هناك مجموعة غريبة من الأطباء لم يرهم من قبل.. كان هناك رجلان وثلاث نساء على درجة عالية من

الجمال.. أعني كلهم طبعًا وليست النساء فقط.. كان لهم طابع غريب.. ليسوا عربًا لكنهم كذلك ليسوا أجانب.. التناقض الذي فسره البعض بأنهم أتراك..

همسات عديدة ترددت في المستشفى عن سر هؤلاء.. خاصة أنهم دخلوا مكتب المدير وقضوا وقتًا طويلاً هناك، وفي النهاية خرجت سكرتيرة المدير تبحث عن (ثروت)...

سقط قلبه في قدميه. المدير لا يحتاج له أبدًا ولا يطلبه ولا يكلمه أصلاً، فماذا استجد ؟

دخل المكتب ليجد مجموعة الأطباء الغريبة جالسة هناك، وكانوا يرمقونه في فضول..

قال له المدير وهو يلوح بخطاب رسمي كئيب الشكل :

"د. ثروت.. وكيل وزارة الصحة يوصينا خيرًا بهذه المجموعة من الأطباء الأجانب التي ستمضي أسبوعًا معنا.. إنهم أتراك، وهم راغبون في أن يتابعوا عملك في المختبر.. لا تقلق من ناحية اللغة فهم يجيدون العربية"

لماذا أنا بالذات ؟.. هناك مختصون أقدم مني وأكثر خبرة. ولماذا هذا المستشفى فقير الإمكانيات بالذات ؟.. لم يسمع أحد من قبل أنه مركز يأتيه الأجانب ليتعلموا. لكن (ثروت) كان مغرورًا كما قلنا لذا عرف السبب على الفور: إنه الأبرع والأرجح عقلاً..

هكذا خرج مع مجموعة الأطباء شاعرًا بفخر جهنمي وهو يمشي بهم في طرقات المستشفى، ونظرات الفضول – ربما الحسد – تلاحقه. وكلما حاول أحد أن يتصل بهذه المجموعة كان يتولى هو الرد، كأنه زوج غيور لا يطيق أن يكلم أحد زوجته..

وفي المختبر راح في خطورة يشرح لهم مدى عظمة ما يقوم به..

أمسك أنبوب اختبار مليئًا بالمصل، وناوله أجمل طبيبة في المجموعة.. وتظاهر بأنه يسند يدها كي لا تهتز فأمسك بمعصمها، وسره أنها لم تحتج.. سألها:

."ما اسمك ؟"

كان لها أنف أقنى جميل، ونظرة يمكن أن تذيب شمعة.. قالت له:

."دافني.."

."عاشت الأسامي"

غبي كما قلنا لهذا لم يلحظ أن للاسم طابعًا إغريقيًا.. مستحيل أن يكون هذا اسمًا تركيًا. على كل حال عرف أن المجموعة تضم (أياد) و(أدونيس) – اسم إغريقي آخر - و(ميريام) و(نيتوكريس).. وكانوا يتكلمون العربية بطلاقة مذهلة.. لا يوجد أدنى ظل من اللكنات الأجنبية..

لاحظ أنهم يتابعونه في نوع من الإعجاب والوله، ويلاحظون كل شيء يقوم به. المدعوة (ميريام) التقطت له صورًا كثيرة فحرص على أن يبدو خطيرًا حاذقًا...

جاءت ممرضة تحمل مجموعة من العينات، وسألت (نيتوكريس) بفضول شعبي محبب:

."أين تقيمون ؟"

هنا تدخل (ثروت) في عصبية صائحًا:

."هذا ليس عملك !.. أية أسئلة توجه لي أنا فأنا المسئول عنهم.."

سألته الممرضة من جديد:

"أين يقيمون ؟".

"لا أعرف..!..".

هنا قال المدعو (أياد):

"فندق (.........)... إنه جميل جدًا".

لم يكن (ثروت) قد رأى فندقًا في حياته، لكنه تظاهر بأنه يعرف الفندق جيدًا وأنه سيقبله على مضض باعتباره ليس الأفضل.

عند نهاية اليوم كانوا سعداء جدًا، وقد دنت منه (دافني) وطلبت في تهذيب أن يوقع لها على الأوتوجراف. نظر لها في دهشة فقالت:

"يشرفني أن يكون معي توقيع شخص مهم جدًا مثلك".

كان يوشك على البكاء.. سوف يتزوجها.. بالتأكيد سيتزوجها ويعود بها لقريته ليراها (البسيوني) و(الشماوي) ويحسدانه. سوف تقول النساء العجائز لبعضهن (هذه زوجة الدكتور). هكذا وقع لها.. من جديد طلبت منه الاحتفاظ بقلمه للذكرى.

"إلى الغد..".

"إلى الغد..".

عندما نام في تلك الليلة كان الفراش يعلو به ويهبط فخرًا.. قال لنفسه إن السحر المصري لا يقهر، فلا توجد أنثى غربية يمكنها مقاومة ذكر مصري وسيم وذكي مثله...

سوف أتزوجها..سوف أتزوجها.. حاول أن يتذكر اسمها فلم يستطع.. هكذا قال لنفسه إنه سيتزوج (دافية) هذه..

وفي الثالثة صباحًا شعر بشيء غريب..

• • •

بالفعل سمع صوت الكلام وأن هناك من يتحرك في الغرفة، وأن هناك من يقف جوار الفراش. هذه المرة لم ينهض بل فتح جفنيه ملليمترًا واحدًا..

في الضوء الخافت القادم من الممر رآهم.. كانوا هم.. نفس مجموعة الصباح التركية، وكانوا يقفون في الغرفة.. فجأة رأى واحدة تدنو منه مصوبة الكاميرا وتلتقط له عدة صور، فحاول جاهدًا ألا يفتح عينه..

ما معنى هذا ؟.. كيف دخلوا هنا ؟

لو تحرك لفتكوا به على الأرجح لأنهم أكثر منه عددًا.. لا سبيل للنجاة سوى ان يتظاهر بالنوم..

سمع صوت (أدونيس) يقول:

"دافني.. هذا كاف.."

قالت وهي تفتح خزانة الثياب:

"لا أصدق أن هذه ثيابه.. هذا حذاؤه.. هذه جواربه.. شيء مذهل فعلاً.."

كان (ثروت) ضيق الأفق كما قلنا فلم يعلق أهمية على كونهم يتكلمون العربية فيما بينهم، كما يحدث في الأفلام عندما يتكلم القادة النازيون الإنجليزية حتى في اجتماعاتهم المغلقة.. كان التفسير سهلاً عنده.. يتكلمون العربية لأنها أسهل في الفهم !!!

قالت (نيتوكريس):

"هل أنتم واثقون من أنه لا خطأ هنا ؟"

قال (أياد) بصوته الغليظ المميز:

"طبيب يدعى (ثروت البربري) في مستشفى (........) التعليمي، وفي العام 2010.. هل هناك احتمال خطأ ؟"

قالت نيتوكريس:

"لا يبدو لي شخصًا مهمًا.."

قال (أدونيس) بلهجة قاطعة:

"كل الأشخاص المهمين في التاريخ لم يبدوا كذلك في البداية.. لم يكن أحدهم يطير أو يخرج نارًا من فمه.. (أنور السادات) كان مجرد سائق لوري يضع على رأسه طاقية صوفية.. (بنيامين فرانكلين) كان رث الثياب مضحكًا فسخرت منه فتاة في الشارع، والغريب أنها تزوجته بعد ذلك !.. هيا بنا!"

وسرعان ما ساد الصمت، وفتح (ثروت) المذهول عينيه ليجد أنهم رحلوا..

ما معنى هذا الكلام ؟

هل هم مجانين ؟.. هل هم لصوص ؟...

تذكر طريقتهم في الاستماع له والتقاط الصور في كل لحظة، وبدأ يشعر بتوتر.. يتصرفون لا كطلبة يبغون العلم بل كسياح في موقع أثري !.. نعم.. هذا هو الشيء الذي لم يعرف كيف يعبر عنه من قبل... لكن لماذا ؟

هو عظيم.. يعرف هذا جيدًا، لكن من قال لهم ؟.. لم يجد الوقت ليفعل شيئًا يكشف هذه العظمة . فما سر هؤلاء ؟.. كيف دخلوا الغرفة وكيف خرجوا منها ؟

في الصباح كان متوترًا محمر العينين، وظهر هذا في طريقة

تعامله معهم . كان عصبيًا لدرجة أنه هشم أنبوب اختبار به مصل واخترق الزجاج يده.. إنه عاجز اليوم عن القيام بعمله بشكل صحيح.. برغم هذا التقطوا ليده عدة صور كأنهم يصورون إحدى البرديات.

في النهاية لف يده بالشاش وانفرد بـ (دافني) في ركن المختبر جوار جهاز (إليزا)، فقال لها:

."الآن أريد تفسيرًا.."

نظرت له في دهشة، فقال ضاغطًا على كلماته:

."لن تخدعيني.. انتم تتسللون لغرفتي ليلاً..!"

."من الذي.....؟"

."أنا أقول.. لو لم تفسري فسوف أحكي كل شيء للمدير وأطلب إعفائي من تعليمكم"

هتفت في جزع:

."أرجوك.. لا !"

ثم ساد صمت ثقيل.. ظلت تنظر للأرض ثم رفعت عينها وقالت:

."يصعب أن أشرح كل شيء.. أنت لا تفهم معنى السياحة التاريخية. لو أنك منحت الفرصة للعودة إلى زمن كليوباترا والحديث معها والتقاط الصور فهل تفعل ؟"

."لا.."

اندهشت من الرد الأحمق، فعادت تقول:

."ليكن.. بعض الناس يرغبون في ذلك.. فلنقل إنني ومن معي لسنا من هذا الزمن أصلاً.. جئنا لهذه الفترة كي نلتقي بك ونصور كل شيء.. حياتك.. طريقة تفكيرك.. عملك.. ألم تلحظ اختفاء أقلامك

ومناديلك وساعتك الطبية ؟.. إننا نجمع هذه الأشياء.. سوف تساوي ثقلها ذهبًا في عالم الغد.. العالم الذي جئنا منه"

لم يفهم شيئًا على الإطلاق سوى أنهم لصوص.. عاد يسأل:

."والورقة التي كلفنا بها السيد وكيل الوزارة ؟"

."مزورة.."

."ولماذا ؟.. لماذا أنا بالذات ؟"

اتسعت عيناها وقالت:

."لأنك . لأنك مهم جدًا.. سوف يتغير تاريخ العالم بسببك !"

• • •

راق الكلام لـ (ثروت) برغم أنه لم يفهم معظمه، وعاد يسألها:

."تاريخ العالم ؟.. هل تعنين انك تتوقعين أن أصير رئيس الجمهورية ؟.. أنال جائزة نوبل ؟.. أشتري أرض (الشمشاوي) ؟"

قالت وهي تكور انفها الأقنى الجميل:

."لا أستطيع التفسير.. نحن ممنوعون من التفسير وإلا تصرفت بطريقة تغير التاريخ. لاحظ أنك بالنسبة لنا ماض يحرم علينا تغييره.. فقط اكتفي بقول إن كل طفل في الرابعة في عالمنا يحفظ اسمك جيدًا وربما لديه صورتك"

لم يصدق حرفًا لكن.. ربما كان هذا هو التفسير الوحيد لظهورهم في غرفته والباب مغلق. لو كان كلامهم صحيحًا فمعنى هذا أنه محق بصدد نفسه.. إنه شخص مهم جدًا.. مهم لدرجة أن يعكف خمسة أفراد على التقاط الصور له وجمع أقلامه ومناديله.. مهم لدرجة أن يتسللوا لغرفته ليصوروه وهو نائم ليلاً..

لقد كان على حق..

لكن.. لن يندفع للجنون بتصديق هذا الكلام الفارغ. إنهم يعبثون به.

سألها:

- "أنتم مصريون طبعًا؟"

ابتلعت ريقها وهزت رأسها أن نعم..

- "وهذه الأسماء الغريبة؟"

- "هكذا ستكون أسماؤنا في الغد.. إن الأسماء تتغير مع الزمن.."

أمسك بيدها بشيء من العنف، لكنها لم تجفل وقال:

- "اسمعي يا كتكوتة.. أنا لا أصدق حرفًا من هذا السخف.. هذه (اشتغالة) لا أبتلعها.. سوف تأتين معي لمكتب المدير وهناك تحكين هذه القصة من جديد.."

- "لا استطيع.."

هنا وجد أن الباقين يقفون حولهما.. يبدو أن وقت العراك قد جاء.. لكنه سوف يصرخ.. سوف يأتي عمال المستشفى ليمزقوهم..

فتح فمه ليتكلم..

لكن......

هل هذه اللطخة الكبيرة من الدم جاءت منه هو؟...

المعطف ملوث بالدم.. الدم يتساقط من منخريه بلا توقف.. ماذا حدث؟

رفع عينيه نحوهم في جزع فوجدهم يلتقطون الصور.. وقال أدونيس وهو يبعد الآخرين:

. "هذا هو.. البداية.. لقد انتقل له الوباء من أنبوب الاختبار الذي تحطم.. لا تخافوا يا شباب فنحن جميعًا تلقينا اللقاح لكن لا تلمسوا شيئًا منذ هذه اللحظة"

. "لا . لا.. أفهم.. "

قالت (دافني) وهي تنهض:

. "نحن طلبة طب جئنا من المستقبل كما قلت لك.. مهمتنا أن نقابلك ونعرف كيف بدأ كل شيء، وأن نلتقط الكثير من الصور.. أنت أول حالة من الوباء الذي أباد ثلاثة أرباع البشر والذي بدأ اليوم حسب كتب التاريخ.. الوباء الذي أطلق عليه العلماء اسم (بريريا) نسبة لأول من مات به، لهذا قلت لك إنك مهم جدًا في تاريخ البشرية، وقد احتجنا لأعوام طويلة كي نعيد الحضارة ونبدأ من جديد.. اليوم نحن نرى مولد الوباء"

قال (أدونيس):

. "الغريب أن صاحب الدم الأصلي لم يصب بالوباء.. "

صاح (ثروت) وهو يحاول النهوض:

. "أنتم مجانين.. مجا.... "

ثم سقط على ركبتيه فقال (أدونيس) وهو يلتقط المزيد من الصور:

. "فعلاً.. الأعراض هي نزف من كل فتحات الجسد ويبدأ فور العدوى.. هل ترون هذا الدم المتدفق من العينين يا شباب ؟.. إنها علامة (ثروت) الشهيرة التي تميز هذا الوباء عن سواه من الحميات النزفية.. "

"أنتم تمزحون !".

قالت (دافني) في برود علمي:

"لا فارق.. صدقت أم لم تصدق، لكني أشكرك على الساعات التي قضيناها معك.. بالفعل أنت أهم شخص في تاريخ البشرية على مدى ثلاثمائة سنة.. كل طفل في عالمنا يعرف اسم (ثروت البربري).. أول من مات بالوباء الرهيب.."

قالت نيتوكريس:

"أعتقد أن علينا الرحيل يا شباب..!".

صاح (ثروت) والدم يسيل بلا توقف من أذنيه هذه المرة:

"انتظروا.. متى ينتهي هذا ؟".

"خلال يومين.. لا أحد يعيش أكثر من يومين !...والآن سوف نعود لعالمنا!"

وسرعان ما كانوا يغادرون المختبر في مزيج من الرعب والحماسة والفوضى.. لابد أنهم يمزحون.. لابد أن هذا مقلب...

لم يكن (ثروت) يعرف أنني سأزوره غدًا في المستشفى، وأنني سأنال نصيبي من العدوى مع كل من تعامل معه. هذا قد يغفر لي بقع الدم المتناثرة على هذه الأوراق...

فتح فمه ليصرخ فشرق بالدم.. لكنه استطاع أن يخرج الصيحة:

"دافني !.. هل تتزوجينني ؟؟؟".

تمت

قصة هيام

قال لي (عباس) في ضيق:

- "التيمة المعروفة .. زوجي غريب الأطوار .. أنا أشك في أنه ليس كما يبدو.. ألا تنوي أن تغير هذه الأحداث النمطية ؟"

قلت له وقد بدأ الدم يتصاعد لرأسي:

- "يا أخي لا تكن مزعجًا .. اصبر .. اصبر.."

سوف أكتب عن هيام.. هيام التي تأبى أن تتزوج لسبب يمكنني فهمه..

زجاجة المياه الغازية تظل باردة جذابة إلى أن تُشرب.. بعدها تصير مجرد زجاجة خاوية مهملة يركلها الأطفال ويغطيها الغبار، وتحملها (سعدية) الخادمة إلى (عبده) البقال في إهمال فيتشاجر معها مؤكدًا أنها أخذت خمس زجاجات لا زجاجة واحدة..

من المهين أن تعتبر نفسها زجاجة مياه غازية.. هذا يوحي بالالتهام وبأنها مجرد سلعة، لهذا كانت تختار تشبيهًا أقل صدمة: ديوان شعر لم يُقرأ بعد.. زهرة لم تُقطف بعد..

الزواج يفقد المرأة كل أسرارها وكل غموضها، وهو ذات ما فطن له رجال الساموراي في الماضي عندما اعتبروا أن الزواج يفقد الفارس قدراته. هيام تؤمن بهذا، ويسرها جدًا أن تسمع العروض تنهال عليها.. لو تزوجت فلا عروض.. أما اليوم فسوف يقترب منها زميل العمل هذا أو ذاك مرتبكًا.. يعطي تلميحات خفيضة باهتة.. يتكلم عن الكفاح المشترك والحاجة لأن يمضي المرء حياته مع شخص يفهمه، ثم يتجرأ ويلقي بالعرض:

"هل لي أن أقابل بابا ؟".

سوف تنظر له كأنه أكبر غبي رأته في حياتها، وسوف تنظر للسقف بما معناه (يا ربي).. ثم تخبره أن أباها توفي وأن عليه مقابلة خالها وأمها. يسرها جدًا أن ترى الأمل في عينيه.. اللورد البريطاني المتأنق يعطي الثعلب فرصة للفرار وأملاً، ثم يشعل سيجاره وينظر لرفاقه وكلابه ويصيح: واصلوا المطاردة !!

هذا شاب مجيد رباه أهله جيدًا وحرص على ان ينال حظ

من العلم والخلق والدين وربما الوسامة... شاب ناجح بكل المقاييس.............. وهي سترفضه !!... ستهز ثقته بنفسه، وبالتأكيد لن يشعر بالراحة أبدًا بعد اليوم وهو يرمق صورته في المرآة.. ربما أنا أسخف أو أفقر أو أقبح أو أغبى مما ظننت بنفسي ؟؟ أمه سوف تقول له إنه طن من الذهب يمشي على قدمين، لكنه لن يصدق.. لابد لأمي أن تقول هذا...

هذه الانفعالات تعطي (هيام) لذة لا يمكن وصفها.. لذة تفوق الزواج والأسرة بكثير..

سوف يأتي الشاب ليلاً مع أبيه وأخيه وأمه ، ولسوف يحاول الجميع أن يكونوا في غاية الظرف.. أما هي فلسوف تراقب الفتى تبحث عن خطأ ما شاعرة بأنها قاض على وشك إصدار حكم الإعدام.. الفتى يهز ركبته كثيرًا.. إنه غير واثق من نفسه إذن.. يحك أنفه أي أنه كذوب.. مجلة (حواء) قالت إن الدم يحتشد في أنف الكذابين فيشعرون بحكاك قوي.. يا لك من وغد كذوب ضعيف الشخصية إذن..!

في النهاية تخبر خالها في حزن مصطنع أنه: مفيش نصيب..

تحاول أمها إقناعها.. الأمهات لا يفهمن هذه الأشياء، ربما لأنهن أكثر حكمة.. سوف تمر هذه (الزهوة) – بلغة الأمهات – وتقل الفرص.. لابد من أن تكون الفتاة ذكية تعرف أفضل الفرص وتغتنمها.. لكن (هيام) لا تريد الزواج فعلاً.. سوف تعرف الوقت المناسب والعريس المناسب يومًا ما لكن ليس الآن.. مستحيل أن تتخلى عن لعبة الصيد الممتعة هذه..

يصعب معرفة اللحظة التي قررت فيها (هيام) أن اللحظة قد حانت..

يبدو أن تعب المعادن يحدث للبشر أحيانًا.. وقد جاء يوم قررت فيه أن تلين وتنهار. لعل الأمر يتعلق بالتعب فعلاً أو يتعلق بشخص (رامي)..

يقول نقاد القصة إن رأي المؤلف لا قيمة له.. المهم ما يراه بطل القصة وليس المؤلف. هذا صحيح إلى حد ما، لكني مضطر لأن أخبرك برأيي في رامي وإلا متُّ كمدًا..

بصراحة أنا لا أرتاح له كثيرًا.. منمق أكثر من اللازم.. أنيق إلى حد الأنوثة.. كل حركاته تمثيلية كأنه جربها مرارًا أمام المرآة قبل ذلك. كيف يمكن أن تقود سيارتك بيد واحدة وكف مفتوح وأنت مضطجع في مقعدك بزاوية 150 درجة ؟.. يد واحدة على المقود كأنك تمسحه من الغبار ولا تقود به، مع لفافة تبغ سوداء غريبة أنيقة في اليد اليسرى تحملها بأناقة كممثلات المسرح الغربيات.. ثم تلك الحركة التي يضم فيها يديه على صدره كأنه يتحدث من القلب...

بصراحة هو رجل يثير اشمئزازي، لكن من الواضح أنه راق لصديقاتها ومن المؤكد أنه راق لها جدًا..

وكانت (هيام) من الطراز الذي يمكن أن يتزوج شابًا – برغم كل مبادئها تلك – لمجرد أن تغيظ صاحباتها... صديقتها (ليلى) باهتة الشخصية من الطراز الذي خلق ليُقاد، وكانت (هيام) تحبها بجنون لأنها تلعب معها لعبة المعلمة والتلميذة.. تتحكم فيها كدمية مسالمة ضعيفة أقل منها في كل شيء، وكانت تتشاجر لها مع الجميع.. مع سائق التاكسي.. مع الشاب الوقح الذي دفعها في الزحام.. مع البائع الذي يغالي في السعر.. الخ.. كأنها رجل يدافع عن امرأته...

(ليلى) كانت معها في المكتب عندما دخل (رامي) يسأل عن تكلفة شحن مجموعة طرود لألمانيا..نظرت له (ليلى) طويلاً ثم قالت همسًا وهي تتنهد:

- "لا خواتم"

- "عم تتكلمين ؟"

- "غير متزوج.."

نظرت هيام إلى يده، وللحظة بدت لها كبحر يعج بالفرص.....

• • •

قالت (ليلى) بصوت مبحوح:

- "إلى أين تذهب تلك الفرص الدسمة ؟.. من يظفر بها يا ربي ؟"

في سرها قالت (هيام):

- "تذهب لي يا بلهاء.. أنا التي تظفر بها !!"

على كل حال كانت قد قررت أنه يكفيها شيء واحد.. أن يتقدم لها هذا الفتى الساحر وتعطيه موعدًا ثم تأتي يوم سبت لتعلن في المكتب:

- "هذا الفتى الوسيم الثري.. لقد تقدم لي الخميس الماضي لكني رفضته.. لا أحب الرجال الذين يستعملون المنديل كثيرًا.."

وسوف تجن الأخريات غيظًا .

على كل حال كانت توقعاتها دقيقة جدًا.. لقد بدأ (رامي) يتردد على المكتب كثيرًا.. أكثر مما يتحمله الموقف في الواقع فمن الصعب أن يتحمس أحد لشحن الطرود بهذا الشكل. ثم بدأ يتعمد الكلام معها، والكلام كان كله عن الطرود – وهو موضوع شائق كما ترى – ثم بدأ يتطور.. إنه أهلاوي ومباراة الأهلي الأخيرة حديث الساعة.. ماذا ؟.. هل تحبين كاظم الساهر مثلي ؟.. غريب هذا..

الآن يمكننا أن ننسى كل ما عرفناه عن هيام.. لقد صارت تسأل نفسها في كل ليلة:

"متى يتقدم هذا المعتوه ؟.؟.. هل يحسبني سأنتظر للأبد ؟".

لكنها لم تكن متأكدة من رد فعلها لو تقدم.. هل ترفضه ؟.. الآن لم تعد واثقة..

عرفت أنه وريث ثري جدًا وأنه رجل أعمال، وأنه وحيد.. رأت سيارته ورأت كيف يدخن.. لم يكن يهز رجله أو يحك أنفه كثيرًا...

من الواضح أنه عريس ممتاز..

• • •

قال لي (عباس) وهو يراجع ما كتبت:

"لا بأس.. الحلقة الأولى جيدة.. أشعر أن شيئًا سيحدث..".

قلت له في غيظ:

"طبعًا سيحدث شيء . لو لم يحدث فلماذا أكتب أصلاً ؟".

"لكن حاول ألا تفسدها..".

"سأحاول...".

(عباس) لا يكف عن إهداء النصائح القيمة لي.. لولاه لتحولت إلى غبار كوني منذ أعوام .

• • •

عندما غادر (رامي) الدار، سألتها أمها في لهفة:

"هيه ؟.. ما رأيك ؟".

لاذت بالصمت ولم تقل شيئًا.. وأدهشها هذا الضعف من نفسها.. هذه الرقة الأنثوية تعتبرها هي شيئًا مخجلاً. ثم أنها لم تمرح ولم تتسل عليه بما يكفي..

قال خالها وهو يحشو فمه بطعام العشاء:

"سمعته طيبة في عالم الأعمال، لكن لا أحد يعرف شيئًا عن أهله.. لا شيء على الإطلاق.. جاء من الخارج ليقيم في مصر ويحكي قصة طويلة عن أهله الذين فروا من التأميم وبقوا في الخارج.."

قالت أمها رأيها الدائم في أن العريس الممتاز هو العريس الذي يكون (حالق راسُه وعادم ناسُه).. أي أنه بلا أهل، أما عن سبب جاذبية حلاقة الرأس فليس لأن الأم من المعجبين بموضة Skin head ولكن لأنه لابد من قافية تتناسب مع (ناسُه)..

هكذا تم الزواج.. وهكذا سقط الطائر المراوغ الحرون في شباك الصياد الوسيم بعد سنوات من التحليق.. أما التساؤل عن الأكثر حظًا (رامي) أم (هيام) فأمر يتوقف على نوعك؛ لو كنت من العرسان الحالمين الذين عبثتُ بهم فأنت تجد (رامي) محظوظًا فعلاً، أما لو كنت مثل (ليلى) لحسدت (هيام)...

على كل حال لاحظت (هيام) أشياء غريبة لم ترحها في (رامي)، لكنها لم تعلق عليها..

لماذا ينام على ظهره دائمًا وعيناه شبه مفتوحتين ؟... لماذا تصحو في منتصف الليل فلا تجده جوارها ؟... أين يذهب ؟.. يقول إنه يحب الهواء الطلق.. لكن أين يشمه بالضبط ؟ في ذلك الفندق الذي أقاما فيه في شهر العسل، كان من المستحيل أن تخرج ليلاً ولا يوجد شاطئ تمشي عليه بالمعنى الحرفي للكلمة...

عندما عادا كانا يسكنان في منطقة منعزلة في أحد التجمعات السكانية.. هناك أصوات غريبة ليلاً.. ذئاب وربما سلعوة.. ليس أفضل مكان يمشي فيه المرء وحده ليلاً...

لكنها لم تستطع قط أن تتصيد اللحظة التي يخرج فيها ليلاً..

دائمًا تكون نائمة...

• • •

قال لي (عباس) في ضيق:

"التيمة المعروفة.. زوجي غريب الأطوار.. أنا أشك في أنه ليس كما يبدو.. ألا تنوي أن تغير هذه الأحداث النمطية ؟".

قلت له وقد بدأ الدم يتصاعد لرأسي:

"يا أخي لا تكن مزعجًا.. اصبر.. اصبر..".

• • •

ليلة غريبة هي تلك التي قضتها مع أقاربه في الفيوم...

لم يكن قد حكى لها عنهم قط، وهي تعرف يقينًا أنه بلا أقارب.. لكن الصورة تتغير ، وهو يحدثها عن أقارب قدامى له.. مجموعة غريبة الأطوار من البشر، وأنا أعني ما أقول.. عندما لا تتكلم طانط (علياء) أبدًا وتظل ترمقك في ثبات، وطانط (ميرا) التي تضع الإيشارب ليحجب معظم وجهها لأنها لا تتحمل الشمس، فلا ترين سوى عينيها.. ثم ذلك الرجل الغريب المدعو (عزمي) الذي لا يكف عن شرب أشياء من زجاجات صغيرة، ويؤكد أنها دواء.....

عندما وضعت (نانسي) قريبته يدها على يد (هيام) شعرت بأنها باردة كالثلج.. قاسية.. صلبة.. يمكنها ان تنتزع قلب أسد من ضلوعه بلا جهد يذكر...

الجو لم يكن ودودًا برغم أن (رامي) بالغ كثيرًا جدًا في التظرف

والتمثيل.. كان يطوح رأسه للخلف ضاحكًا، ويثب في الهواء متظاهرًا بالحيوية...

في نهاية اليوم قالت طانط (علياء) بصوتها الخشن الأنفي الذي يذكرك برجل عجوز يرتجف:

- "شد حيلك يا (رامي).. نحن نريد الذرية.. أنت تعرف هذا جيدًا.."

لم تكن دعوة طيبة.. كان هذا أمرًا صارمًا لا راد له، وتقسم (هيام) على أن (رامي) وقف في مكانه بشيء من الرهبة، واحمرت أذناه قليلاً...

- "طبعًا يا طانط..."

كانت مندهشة من تأثير أقاربه عليه ولماذا لم يظهروا في الصورة إلا بعد الزواج، عندما جاء المساء فأعد لها (رامي) الطعام.. جلب الكثير من عصير البرتقال وجلس معها على ضوء الشموع.. كانت تفكر: إن هذا ليس عدلاً.. الفتاة تقبل المخاطرة وتتزوج رجلاً لا تعرف عنه إلا أقل القليل.. ثم يكون عليها أن تواجه هذا كله وحدها وأن تدفع ثمن قرارها هذا .ماذا تعرفه عن (رامي) ؟.. لا شيء سوى اهتمامه بالطرود المرسلة لألمانيا وأنه وسيم منمق...

بالتأكيد كانت في وضع أفضل عندما كانت عزباء تملي شروطها، كقائد يستعرض صفوف الجنود من الخطاب...

فجأة بدأ النعاس يلعب بعينيها.. تثاءبت ولم تعد تشعر إلا بـ (رامي) يقتادها للفراش وهي لا تكف عن التثاؤب.. الأرض عالية جدًا ولينة.. من قرر فرش الشقة بالمراتب الهوائية ؟ لابد أنه مجنـ............

• • •

هنا نهض (عباس) محنقًا وألقى بالورق على الأريكة وقال:

- "ها نحن أولاء قد انتقلنا لقصة (طفل روزماري) مع أننا بدأنا

بقصتك الخاصة .. الزوج يعمل مع عبدة الشيطان بغرض المجيء للكون بابن للشيطان من امرأة بشرية.. زوجها متواطئ يا أستاذ.. متواطئ..!.. هذا واضح وكذلك هو يدس لها المنوم في عصير البرتقال.. بل من الممكن أن تسوء الأمور أكثر ويكون زوجها هو الشيطان نفسه !!"

نهضت وبدأت اجمع أوراقي أمام عينيه المندهشتين، فسألني في غباء عما هنالك.. قلت له:

."أرى أن تقوم أنت بالتأليف.. فلديك موهبة ممتازة في هذا الصدد.."

جذبني من ذراعي وقال ملحًا:

."أنت لا تقبل النقد.."

."وأنت لا تقبل الفن"

."فقط عندما يكون جيدًا.."

."أنا لا أؤمن بموضوع تذوق البيضة لمعرفة إن كانت فاسدة أم لا.. لابد من التهامها كاملة أولاً.. إن تسممت كانت فاسدة وإلا فهي جيدة.. فقط اخرس قليلاً ودعني أكمل"

هكذا جلس مغتاظًا وبحث عن الصفحة التي كان يطالعها...

• • •

(هيام) الآن حامل..

إنها مندهشة من كل هذه المهانة التي تلاقيها أنوثتها، فهي عاجزة عن اعتبار الأنوثة مجدًا.. ليس لها سوى بطن منتفخة وقدمان متورمتان وأنفاس قصيرة متلاحقة وحجاب حاجز يوشك على أن يخرج من فمها.. الركلات... الركلات من الداخل لا من الخارج..

الطبيب الذي فحص بطنها بالسونار اتسعت عيناه رعبًا..

."هل هناك مشكلة ما ؟"

تجمعت قطرات العرق على جبينه، برغم تكييف الغرفة القوي، وقال:

."أشياء غريبة في الصورة.. أعتقد أن هذا ناجم عن التزييغ.. أجسام في السائل الأمنيوسي تعطي صورًا غريبة.. ربما الغازات.. ربما.... فقط يجب أن نعيد هذا الفحص بعد شهر"

لكن (رامي) جن غيظًا عندما عرف أنها خضعت للفحص بالسونار، وقال لها:

."أشياء كهذه لا تتم دون علمي.. لربما عرض السونار الجنين للخطر"

."لكن السونار لا يؤذي.. إنه آمن تمامًا"

."هكذا يقول الأطباء اليوم، وعما قريب سوف يعرفون أنه خطر داهم.. في طفولتي كانوا يفحصون الأجنة بالأشعة السينية ويحسبون لا خطر هنالك"

هكذا اضطرت لأن تصمت وتقبل ألا يفحصها طبيب طيلة فترة الحمل....

والجواب عن مخاوفها كان قريبًا جدًا.. جدًا...

• • •

ولد (أحمد) في ليلة من شهر ديسمبر.. ليلة باردة انهمر المطر فيها مدرارًا، وكان طفلاً جميلاً بلا تشوهات... لكنها لم تكن سعيدة به. ثمة شيء خطأ... (رامي) كذلك لم يكن سعيدًا به برغم أنه أطلق عليه

هذا الاسم ليكون (أحمد رامي) على اسم الشاعر الكبير. كان (رامي) يتصرف بنوع من اللهفة والقلق كأنه كان ينتظر لحظة بعينها وقد جاءت...

لاحظت (هيام) أن ابنها صموت.. لا يبكي مثل الصبية ولا يعوي.. بل إنه يكون أكثر راحة في الظلام... هذا أثار رعبها بشكل خاص...

لم يكن يلعب مع رفاقه.. بالواقع لم يكن له رفاق أصلاً..

• • •

قال (عباس) ضاحكًا:

"لقد انتهت عقدة روز ماري وبدأت عقدة (النذير).. داميان.. الطفل الشيطاني.. ربما مسحة من (لعنة المذءوب) كذلك حيث يلمس الرضيع ماء العماد فيغلي، لأنه يحمل بذور داء الاستذئاب.. فقط أنت جعلت الجو عربيًا.."

قلت له في وقار وهدوء:

"لن يحدث هذا.. صدقني..."

هنا اتسعت عيناه رعبًا.. وطوى الورق كأنه عصا غليظة ونهض صائحًا:

"لحظة !.. الرعب الموجه لوجهة خطأ !... هذا هو !... أنت حاولت أن تجعلني أشك في (رامي) والطفل منذ بداية القصة.. هل تعرف ما أفكر فيه ؟... هناك كائن شيطاني واحد هو (هيام) !.. سوف ندرك هذا في النهاية وينقلب كل شيء !"

قلت في برود وأنا أضع ساقًا على ساق:

"لو فعلت هذا لقلت إنني أكرر نفسي..

- "إذن ما الذي سيحدث ؟... ماذا ؟"

- "أكمل القصة !!"

• • •

الآن (أحمد) الصغير في العاشرة..

تجلس (هيام) في الشرفة ترمقه وهو يلعب في حديقة الفيلا. للمرة الأولى تنظر لنفسها من الخارج وتدرك أنها سعيدة.. لا تعرف الظروف السحرية التي جعلتها تغير خطة حياتها وتتزوج بدلاً من التسلية على الخطاب.. لا تعرف كيف وثقت بشخص لا تعرف عنه شيئًا، لكنها اليوم تعرف عنه الكثير..

ظلت طيلة هذه الفترة تتوقع الشر، لكن لم يحدث شيء.. تنتظر في كل يوم مصيبته القادمة، لكن لا مصائب.. اليوم تدرك أنها أضاعت عشر سنوات ثمينة من حياتها بانتظار انهيار كل شيء، وانكشاف السر الرهيب الذي يخفيه زوجها.. لكن لا سر هناك..

الحياة لم تكن بهذا السوء.. سوف يكبر الصغير وتشيخ هي، وسوف تذهب معه لرؤية فتاة أخرى تتسلى برفض الخُطّاب.. وستقول له معزية وهما ينزلان في الدرج:

- "انسها.. صدقني.. الموضوع لا يستحق.."

لكنه لن ينسى بسهولة.. هكذا دورة الحياة الأبدية...

وابتسمت ورشفت رشفة أخرى من عصير البرتقال الذي أعده لها زوجها..

تمت

• • •

هتف (عباس) في بلاهة:

-"ماذا ؟... تمت ؟... لم يحدث شيء !!"

قلت وأنا اضع الأوراق في ملف:

-"ألم تفهم ؟... بلى لم يحدث شيء.. هذه قصة عن فتاة اسمها (هيام) تزوجت وأنجبت طفلاً وعاشت حياة سعيدة... هذا كل شيء.."

احمر وجهه كالطماطم وقال:

-"رامي ليس شيطانًا ولا عابد شيطان ؟.. ابنها ليس ابن الشيطان.. البرتقال لم يحو منومًا.. الجولات الليلية لا سر وراءها ؟.. الأسرة ليست أسرة شيطانية ؟..."

قلت في ثقة:

-"لا تنكر أنني خيبت كل توقعاتك ولم يحدث شيء مما خمنته.. هذا هو سر قوة هذه القصة.. أول مؤلف يكتب قصة لا يحدث فيها شيء على الإطلاق، وبالطبع لن يزعم أحد أنه قرأ القصة من قبل أو خمن ما سيحدث فيها .. وإنني لأشكرك على الشيك الدسم الذي كتبته كأجر لي"

راح يفكر بعض الوقت، ثم نهض ليقتادني إلى باب الخروج... هناك صافحني وهو يبتلع ريقه، وقال في ارتباك:

-"سامحني.. إن الصدمة كانت قوية.. والنهاية غير متوقعة فعلاً.. آخر نهاية يمكن لإنسان أن يخمنها مهما حاول.. أعتقد أنني سأنشرها.. إن القصص التي لا يحدث فيها شيء على الإطلاق ليست بدعة.. يسمونها (اللا رواية) Antiroman وهناك نماذج قوية لدى فوكنر وفورستر ، لكن البداية كانت توحي بشيء مثير كما تعلم وحسبت أننا..

احم.. إنني مرتبك ولا أعرف ما أقول...."

وفتح فمه ليعبر أو يقول أكثر، لكني ابتسمت لأريحه..

واستدرت منصرفًا وهو ما زال ينظر لي في بلاهة باحثًا عن شيء يقال...

تمت

مصحة الدكتور أنطوان

كنت أؤمن مثلها أن هناك شيئًا مريبًا .. لكني بصراحة لم أملك الشجاعة اللازمة لهذه المغامرة الليلية. كل شيء يوحي بأننا في مكان مريب .. هناك لغز يجب أن نحله، وعلى كل حال تنجح الأنثى الشجاعة دومًا في أن تجعل الرجل شجاعًا .. هكذا في الظلام وعندما صارت الساعة الثانية بعد منتصف الليل غادرت غرفتي ومشيت إلى الحديقة حيث كانت تنتظرني .. هل هناك كلاب يطلقونها في الحديقة ليلاً ؟.. لا أعتقد وإلا لمزق نباحها الصمت ..

نعم.. هي تقع في منطقة جميلة جدًا خارج القاهرة، والطريق إليها يوحي بأنك في بلد غربي ما. الخضرة في كل مكان والورود مع الهواء النقي.. كل شيء معقم.. كل شيء نظيف.. هناك من بحث بمجهر عن أي شيء يوتر النفس أو يرهق الأعصاب، وقام بنزعه بعناية..

المشكلة أن هذا بالضبط هو ما يجعل المكان لا يطاق!...

لا أحد يشعر بالراحة في غرفة الجراحة.. إنها المكان الأنظف والأكثر تعقيمًا بلا شك، لكن هذا بالذات يشعرك بالتوتر والاختناق.. لابد من درجة ما من الفوضى والصخب والتلوث حتى تشعر بأنك حي وسط أحياء.. تذكر أنهم يبتلعون البكتريا ابتلاعًا في العالم المتقدم حتى يقللوا من سرطان الجهاز الهضمي.. لقد اكتشفوا أن قنواتهم الهضمية معقمة أكثر من اللازم، وهذا - ويا للعجب - أخل بتوازن الخلايا وجعلها مستعدة للإصابة بالسرطان.. لابد من بعض التلوث الصحي... هذه هي الحقيقة..

نعم.. المصحة جميلة جدًا ونظيفة جدًا..

هذا المدخل قد اجتازته سيارة أكثر من مليونير وأكثر من ممثلة سينما أرهقتها الأضواء، وأكثر من مسئول جاء سرًا ليتلقى علاجًا ضد الإدمان..

اللافتة الكبيرة تقول (مصحة الدكتور أنطوان).. اسم هو نار على علم بالتأكيد. الدكتور أنطوان نفسه من أصل لبناني لكنه يعيش في مصر منذ دهور، واعتقد أنه مسن جدًا..

على البوابة الحديدية يقف رجل الأمن ينظر لنا في شك..

أخرجت (ناديه) الكارنيه الصحفي والخطاب، ففتح الرجل البوابة وقرأ الاثنين، ثم فتح الباب دون كلمة..

انطلقت السيارة وسط ممر أكثر جمالاً.. الزهور معتنى بها فعلاً وهناك نافورة أنيقة على شكل سمكة عملاقة تفرغ الماء من فمها...

قالت ناديه وهي تنظر في فضول:

."لا يوجد مجانين.. ألم تلحظ هذا؟"

قلت في ضيق:

."لسنا في فيلم لاسماعيل يس هنا.. لا يجب أن تري جنرال نابليون محاطًا بجنوده.."

ألم أحدثك عن ناديه؟.. يصعب أن تتصور أن أوجد مع ناديه في مكان واحد، إلا لو تصورت أن يتواجد النمس والثعبان في مكان واحد.. القط والفأر.. لو كانت هناك كيمياء بين الأرواح فعلاً، فنحن لا نملك ذرة منها..

ناديه في الخامسة والثلاثين.. غير متزوجة.. على قدر من الجمال، لكنها تؤمن أن الرجال مجموعة من الخنازير ضيقة الأفق.. الذكي بين الرجال صار وغدًا، أما باقي الرجال فلا خير يرجى منهم ومن الأفضل تجاهلهم أو إشعارهم بعدم الراحة..

أنا أصغر سنًا منها لهذا يحلو لها أن تعاملني كطفل أخرق.. وهكذا تعطي نفسها حرية أن تعلق على تصرفاتي وتنصحني وتنتقدني أمام الناس.. لذا أرد ردودًا سمجة.. الخلاصة أن رئيس التحرير عندما جعلنا نقوم بهذه المهمة معًا كان يعذبنا.. بصراحة أفضل أن أكون مع حية ذات أجراس على أن أكون مع ناديه لمدة أسبوع..

على الباب كانت هناك تلك السكرتيرة.. ليست حسناء لكنها موحية بالثقة كأنها معلمة واسعة الخبرة.. كيف عرفت بقدومنا؟.. بالتأكيد رجل الأمن على البوابة..

هزت رأسها محيية وقالت بلهجة عملية:

"الأستاذة (نادية شاكر) والأستاذ (عصام عبد اللطيف)... جريدة (الحدث)... أنتظركما.. الدكتور أنطوان يعرف بقدومكما كذلك.. مرحبًا".

غرفة د. انطوان تقع في نهاية ممر رطب معتم بدوره يزدان بالتماثيل على الجانبين.. هناك جهاز تلفزيون في الردهة، والعلامة الوحيدة على طبيعة المصحة هي أن التلفزيون موضوع على رف عال..

فتحت الباب وأعلنت عن قدومنا فجاء صوت من الداخل يرحب بنا..

والآن أقدم لك د. أنطوان.. أشهر اسم في عالم المصحات النفسية في مصر حاليًا..

إنه مسن جدًا بالفعل.. هناك درجة من الشيخوخة تجعل كل شيء في الرجل أزرق.. لون عينيه.. الأوردة الكثيرة على ظهر يديه..أظفاره.. يداه بالذات كانتا غريبتين بجلدهما شبه المدبوغ المشدود على العظام.. هناك مرض روماتزمي يعطي هذا المنظر لكن لا أذكر اسمه للأسف.. حتى بذلته كانت زرقاء وربطة عنقه مثلها، مما أعطاه طابعًا أزرق شاملاً....

بصوت مرتجف واهن ولكنة أجنبية واضحة رحب بنا..

"عرفت أنكما ستمضيان أسبوعًا هنا، لجمع القصص الغريبة. إن (زيدان) صديق قديم لهذا لم استطع رفض طلبه هذا.. لكن أصارحكما أنني لا أقبل أي طلب مماثل من أي واحد آخر".

زيدان؟.. آه.. رئيس التحرير (محمود زيدان).. نحن لا نناديه بهذه الطريقة لهذا لم استوعب أولاً...

قلت في كياسة وأنا أمد يدي لعلبة التبغ:

"نحن نشكرك كثيرًا على هذا الكرم.. من المعروف أن اسم المصحة سيرد في التحقيق مرارًا، وبهذا نمنحها نوعًا من الدعاية".

تؤ.. تؤ..

لمحت الاستنكار على وجهه فنظرت له في غير فهم.. رفع إصبعًا مرتجفًا وقال:

"هذه مصحة نفسية.. التدخين ممنوع منعًا باتًا..".

أعدت العلبة لجيبي في ضيق.. سوف يكون تحمل هذا صعبًا لأسبوع كامل . لكني سأدخن في غرفتي كثيرًا جدًا.. أعرف هذا يقينًا..

عاد يقول:

"نحن لا نريد هذه الدعاية لأن اسمنا براق بما يكفي.. لكني أرغب فعلاً في قراءة ما ستكتبان.. أريد عينًا أخرى ...".

ثم دق الجرس الذي أمامه وقال:

"سوف تذهبان الآن إلى غرفتيكما.. ثم يقوم د. (سمير) بإخباركما بخطة العمل العامة..".

ثم اتسعت عيناه الزرقاوان وقال بصوت كالفحيح:

"ثمة أمور خطرة سوف تعرفان عنها في وقتها.. لكن تذكرا أن هذا المكان ليس آمنًا جدًا.. خذا الحذر.. هذا ما استطيع قوله في الوقت الحالي !".

• • •

اسمه (مصطفى الصاوي)..

في الأربعين من عمره، وقد بدأ الشعر يتراجع عن مقدمة رأسه..

له عينان جاحظتان اعتدت أن أربطهما بالجنون. هناك يجلس في تلك الغرفة الشبيهة بالزنزانة.. ليست مبطنة كما توقعت، لكنه مقيد بسلسلة إلى الجدار، ويتربع على الفراش كقرد.

هزني منظره.. فيه شيء غير إنساني يبعث القشعريرة في النفس، وأنا لم أر إنسانًا مقيدًا بسلسلة من قبل.

قال د. (مراد) الطبيب الشاب ذو الشعر الثائر:

- "(مصطفى الصاوي).. اضطراب ثنائي القطبية مصحوب بميول عدوانية شديدة.. لقد هشم رأس زوجته، ثم اتبع ذلك بأطفاله.. في العادة لا يرسلون لنا حالات بهذه الخطورة، لكنه من أسرة ثرية ذات نفوذ.. وقد أحضروه هنا.. نحن نتعامل معه بحذر شديد"

ثم أضاف بلهجة حازمة:

- "طبعًا أنت مسئول مسئولية كاملة عن أسرار المرضى.. لا أسماء من أي نوع، ولا حروف أولى يمكن تخمينها.. لو وصفت حالته فلتقل (أحد المرضى).."

ثم أشار لي محذرًا وقال:

- "لا صور طبعًا.."

هنا تدخلت ناديه في حدة كعادتها:

- "لحظة.. ما تأثير الكلام عن المريض بهذه العبارات الواضحة أمامه؟.. أليس هذا حمقًا؟"

قال الطبيب في مقت واضح:

- "لا تحسبي أننا لم نفكر في هذا، ومعلوماتنا أنه لا يفهم ما نقول.."

نظرت لي عينا مصطفى الجاحظتان وفتح فمه وارتجفت شفته السفلى.. ثم أدار ظهره لنا..

في خطوات ثابتة غادر الطبيب الزنزانة.. ومشى في الردهة قاصدًا زنزانة أخرى..

كان هناك ممرض ضخم الجثة أدار المفتاح في الباب.. لا توجد كوة ترى منها المريض كالتي نراها في السينما..

الغرفة كانت مظلمة . هناك فراش وهناك مكتب صغير تجلس إليه امرأة.. امرأة في الثلاثين من عمرها نكشت شعرها تمامًا.. يستحيل أن تعرف إن كانت جميلة أم قبيحة . يكفيك فخرًا أن تعرف أنها امرأة.. وكانت تكتب في ورقة بلا توقف.. ثمة قط صغير يغفو على الفراش..

نظرتُ إلى الورقة المقلوبة فرأيت كتابة بخط لا يقرأ:

- "ساعدوني ساعدوني ساعدوني ساعدوني ساعدوني"

كتابة صغيرة متراصة توحي لك بأنها نقش أو زخرفة. قال الطبيب الشاب بلهجة لا مبالية:

- "مدام (عفاف).. حالة بارانويا متقدمة.. تؤمن أن كل الناس يريدون قتلها وأن رئيس الولايات المتحدة أرسل من يدس لها السم.. السبب أنها وصلت لسر القنبلة السينية.. القنبلة التي يمكن أن تمحو قارة من الوجود.."

ثم مال على المريضة وسألها:

- "مدام عفاف.. هل تركيب القنبلة معك هنا؟"

نظرت له في رعب ولم تقل شيئًا..

قال وهو يشير إلى القط النائم:

"لا نحتفظ بحيوانات هنا، لكننا مرغمون على ذلك لأنها لا تأكل إلا بعد أن يأكل القط.. تطعمه شيئًا من الطعام ثم تنتظر.. في كل مرة تتوقع أن يموت لكن هذا لم يحدث".

وغادر الزنزانة فخرجنا معه. قالت ناديه وقد بدا أن مرض الأنثى هزها بقوة.. هي ترحب دائمًا بجنون الرجل لأنها تعتبر الرجال مجانين أصلاً:

"على قدر ما أرى هي ليست خطيرة..".

قال الطبيب بلا مبالاة:

"لقد خنقت شقيقتها التي كانت تقيم معها أثناء نومها.. هل هذا خطير بما يكفي؟.. يمكن في أية لحظة أن تعتبرك عميلاً للمخابرات المركزية.."

ثم مشى في الردهة، فنظرت في توتر إلى ناديه لأرى إن كانت تشاركني مشاعر التوتر.. بالطبع لم تنظر لي ولم تلتق عينانا قط.. تلاقي العينين يتطلب حدًا أدنى من التفاهم بين الروحين.

اتجه الطبيب إلى غرفة ثالثة...ثم غير رأيه فتجاوزها.. بعد غرفتين أخريين أشار إلى الممرض المخيف فأدار المفتاح في القفل.. فانبعثت رائحة لا تطاق كأنه قفص الأسود.

بالداخل كان المنظر مروعًا لأن هناك فتاة تقف في ركن القاعة وقد قيدت بسلسلة إلى قطعة حديد بارزة، وقد تمزقت ثيابها واستندت إلى الجدار.. تلهث كالوحوش بلا توقف.. حولها غابة من الفضلات البشرية.. إنها وحش بلا زيادة ولا نقصان.. عينان مجنونتان مسعورتان.. عصبية بالغة.. لعاب يسيل من الفم..

ورأيت الممرض يتقدمنا وهو يخرج من جيبه جهازًا صغيرًا.. قدرت أنه صاعق كهربي أو Taser مما يستعمل للدفاع عن النفس.. هذا الثور يريد الدفاع عن نفسه بأداة فلابد أن الأمر خطير..

قال الطبيب الشاب وهو لا يبعد عينيه عن الفتاة:

."هنا الجنون الرسمي.. سكيزوفرنيا متقدمة، أدت إلى أن اعتبرت الفتاة نفسها نمرًا.. يمكن أن تنقض على أي واحد لتمزق عنقه.. "

هنا صاحت ناديه في عصبية:

."هذه طريقة غير بشرية.. على الأقل يمكنكم تنظيف فضلاتها.. "

قال الطبيب في هدوء:

."نحن نفعل ذلك كلما سنحت الفرصة، لكنه يستدعي تخديرها بطلقة منومة على شكل Dart أولاً... لقد هاجمت عاملة نظافة عندنا منذ عام، ولم يكن المنظر جميلاً.. "

كنت أنا قد قرأت عن حالات التصور الذئبي (لايكا أنثروبي) عندما يعتقد المريض أنه ذئب، لكن لم أسمع موضوع النمر هذا.. المشهد ملأني رجفة..

الغرفة التالية كان فيها سامي..

رجل نحيل أصلع ضئيل الجسد يذكرك بوودي آلين كثيرًا.. يجلس أمام رقعة الشطرنج للأبد ويلعب مباراة أبدية مع نفسه..

."محاسب في الخمسين من عمره اكتشف أن زوجته تخونه مع أقرب صديق له... من حينها يلعب الشطرنج بلا توقف.. "

قالت ناديه:

."لا يبدو مبررًا لوضعه هنا كما أتصور"

"عندما يجد نفسه في وضع (كش ملك)، يغمد سكينًا في عنق أي شخص يراه !.. ثم يبدأ مباراة جديدة".

نظرت للرقعة وحمدت الله على أن ملكه يبدو آمنًا...

قلت للطبيب الشاب:

"هل المصحة لا تضم إلا هذه الحالات المخيفة؟".

• • •

قال د. مراد وهو يخرج بنا من هذا القبو الرهيب:

"أردت أن أبدأ بالحالات الخطرة لأشد انتباهكما.. لكنكما ستقابلان الكثير من الحالات البسيطة كالعصاب والذهان غير الخطر.."

قالت ناديه:

"بدوت لي للحظة كأنك طفل يستمتع بأن يخيف الفتيات بسحلية اصطادها !".

نظر لها في غيظ.. هذه هي الحقيقة فعلاً لكنها لا تُقال.. كل هؤلاء المحترفين لديهم نقطة ضعف صبيانية (فلتروا كم نحن خطرون !). هذه موهبة ناديه الدائمة في عدم إشعار الآخرين بالراحة.

قال في برود وهو يمشي وسط الممرات:

"فلنترك السحالي جانبًا.. غرفتاكما في نهاية الممر.. هناك جهاز هاتف.. أي شيء تريدان يمكنما طلب رقم (5).. ليس هذا فندقًا لكن د. (أنطوان) أعطى تعليمات صريحة بأن تشعرا بالراحة..يمكن لكل منكما طلب غرفة الآخر عن طريق رقمي 10 و11".

ونظر في ساعته:

- "الإفطار في السابعة صباحًا حتى التاسعة.. الغداء في الثانية بعد الظهر حتى الرابعة. العشاء التاسعة مساء.."

نظرت في ساعتي.. لقد فات وقت الغداء إذن.. تبًا لكم !.. فقال باسمًا:

- "استبقينا لكما وجبتين"

كان لغرفتي ذات الطابع العملي الكئيب المميز لاستراحات الشركات.. كل شيء موجود.. كل شيء نظيف.. كل شيء قبيح خال من الروح. هناك مرآة كبيرة في ركن المكان، وعلى طريقة الفنادق كان هناك مصحف وإنجيل جوار الفراش..

اتجهت للمرآة وبدأت أفك ربطة عنقي.. لا أعرف سبب هذا الشعور الغريب بأنني مراقب.. لكن أين؟.. المكان لا يسمح بوجود كاميرات مراقبة ولا توجد ثقوب مفاتيح...

مددت إصبعي إلى المرآة ولمست الزجاج، فلمس إصبع رجل المرآة طرف إصبعي، كأنها لوحة مايكل أنجلو الشهيرة أو ملصق فيلم (إي تي).. لا مسافات بين الإصبعين. شكرًا لقصص الجاسوسية التي قرأتها في صباي.. هكذا اتجهت للهاتف وطلبت رقم 10..

جاء صوت ناديه المتشكك المتذمر، فقلت لها:

- "هل تشعرين بأنك مراقبة؟"

قالت في ضيق:

- "كنت أتوقع أن تتأخر إصابتك بالبارانويا بعض الوقت.. كل الناس يعتقدون أنهم شفافون ويشعرون بأنهم مراقبون"

- "أنا لا أمزح.. المرآة في غرفتي واضح أنها ذات وجهين.. بمعنى

آخر هناك من يقف خلفها ويراقبني كأنه ينظر عبر لوح زجاج.."

. "وهذا يعني؟"

. "يعني أن هناك من يراقبنا.. ويعني أن عليك ألا تخلعي ثيابك أمام المرآة، إذا لم ترحبي بوجود طاقم المستشفى كله خلف المرآة، يقزقز اللب ويشرب الكولا ويتسلى برؤيتك عارية.."

. "تأخرت كثيرًا.. لقد بدلت ثيابي فعلاً لكني ساضع غطاء على كل المرايا، وآمل ألا يؤدي هذا إلى أن نقضي باقي عمرنا هنا بتهمة البارانويا.. بالمناسبة هذا الكلام لا يقال عبر الهاتف.."

. "بل أريد أن يعرفوا أننا لسنا حمقى"

وضعت السماعة ورحت أفكر في معنى هذا.. لا نملك أسرارًا خطرة ولسنا مهمين، فلماذا يهتم أحد بمراقبتنا؟

بعد الغداء المتأخر جاءت ممرضة أخرى، وطلبت منا أن نصاحبها في جولة أخرى بالمستشفى.. إن دكتور (منصور) ينتظرنا..

د. (منصور) كان رجلاً ضخم الجثة كباب المخزن له لحية قصيرة مدببة كلحية التيس. اصطحبنا عبر حديقة أنيقة مهندمة، إلى بناية صغيرة ذات بوابة حديدية يحتشد خلفها ثلاثة من رجال الأمن الذين تبدو عليهم الخطورة. قال لنا وهو يصعد في الدرج:

. "لدينا طرق قد تعتبرها غريبة أو ثورية أكثر من اللازم، لكنها برهنت عن نجاح شديد.."

القاعة الأولى كانت مغلقة بباب حديدي، فدق الجرس مرتين وسرعان ما وجدنا أننا في غرفة كبيرة تشبه عنابر المستشفى.. على الفراش كانت امرأة لا أعرفها . كانت مقيدة في وضع مصلوب بحيث

صارت معدومة الحيلة تمامًا.. جوارها كانت ممرضة تفرغ محقنًا كبيرًا في وريد الساعد..

قال منصور وهو يبتسم:

"هذه هي جرثومة الملاريا !".

نظرت له ناديه في ذهول كأنما هي تستوثق من أنها لم تخطئ السماع، ثم سألته من جديد:

"ملاريا؟؟؟؟؟".

"تصيب المريض بالحمى.. هذه من طرق العلاج بالصدمة القديمة جدًا.. لاحظ الأقدمون أن المريض يتحسن بشكل ملحوظ بعد العدوى وارتفاع الحرارة، وبعد ذلك نعالجه من الملاريا..".

الغرفة الثانية كانت ألعن.. هذه المرة هناك مريض مربوط بالكامل إلى سقالة مهيئة بحيث تنزلق لتغمره في الماء لبضع دقائق.. ثم ترتفع بعد ما تطول الفترة وتتمزق أعصابنا.. يشهق المريض في جشع ليعب الهواء بسرعة، قبل أن تنحدر السقالة من جديد..

هذا لا يشبه المستشفى جدًا.. هذا أقرب إلى معتقل السجن الحربي، أو غرفة في معتقل (داخاو) النازي.. المشكلة هنا أن المريض لن ينقذ نفسه بالاعتراف.. فبأي شيء يعترف؟

قال الطبيب باسمًا وهو يراقب وجهينا:

"مندهشان من أساليبنا.. أليس كذلك؟".

الغرفة الثالثة كان يتوسطها قفص عملاق من السلك الضيق الشبيه بالشبكة.. في الداخل يقف المريض عاريًا تقريبًا ثم ينفتح صندوق ما، فتهجم عليه أسراب من البعوض والذباب... العدد مهول

لدرجة أنها غطته بالكامل وهو يصرخ ويحاول حماية وجهه وعينيه..

قالت ناديه في برود ساخر:

"العلاج بالحشرات.. لابد أنه علاج قديم محترم".

قال الطبيب:

"لا.. هذا من اختراعنا.. إن صدمة أن يجد المرء نفسه مغطى بالحشرات لتفوق التحمل . هذه الصدمة كفيلة بزعزعة كل توازنه العقلي.. عندما يكون العقل مزعزعًا فمن الوارد أن يعود لطبيعته مثلما تهز الساعة المعطلة لتعمل.. كان فرانكنشتاين يتبنى هذه النظرية".

لم يرد الطبيب بل صاح في الممرض الشبيه بفتوات السلخانة:

"يكفي هذا يا (سملاوي).. هلم".

ففتح السملاوي ثغرة صغيرة في القفص ثم صوب خرطومًا كاسحًا من الماء يشبه خراطيم المطافئ؛ ليكتسح كل ما غطى المريض من حشرات . دعني أؤكد لك أن اندفاع الماء كان نوعًا آخر من التعذيب..

قالت ناديه هامسة لي في ضيق:

"لا أعرف رأيك.. لكن رأيي أن هذه المصحة ليست على ما يرام..!".

• • •

ليست على ما يرام....؟.. وماذا نعرفه نحن عن الطب النفسي؟... لربما كانت هذه الأساليب حديثة فعلاً.. أحيانًا يتصرف الأطباء بطريقة تبدو لك قاسية جدًا..

أما الغرفة التالية فقد كانت أغرب من هذا كله.. هناك كلبان شديدا الهياج والضخامة مربوطان بحبلين واهيين متآكلين إلى الجدار، وهما

يحاولان جاهدين الوصول إلى مريض عرفته على الفور.. إنه المدعو (سامي) المحاسب لاعب الشطرنج إياه... كان عاريًا تمامًا إلا مما يستر العورة، يلتصق بالجدار ويصرخ.. محاولاً أن يبتعد قدر الإمكان عن أنياب ومخالب الكلبين.. لو استطاع الدخول في الجدار لفعل.. الحق أن صراخه ونباح الكلبين جعلا المكان جديرًا بجحيم (دانتي)..

قال الطبيب بلهجة تقريرية:

. "العري يشعر المرء بهشاشة غير عادية.. هذا مهم للتخويف.."

المفزع هنا أن الكلبين يحاولان من حين لآخر قضم الحبلين.. معنى هذا أن أحدهما قد يتحرر في أية لحظة.. لن يستغرق أكثر من ثانية حتى يمزق حنجرة الرجل..

قال الطبيب وقد لاحظ قلقنا:

. "هناك ممرضان ينتظران أن يفلت كلب ليطلقا عليه طلقة منومة.. إنهما يراقبان الغرفة جيدًا من مكان خفي.."

لكن هناك وقتًا بين الفعل ورد الفعل.. أليس كذلك؟.. هذا الوقت نجحت الحيوانات في اختصاره.. بمعنى أن الكلب قد يمزق الرجل قبل أن يستوعب الممرض ما يحدث..

لما غادرنا الغرفة نحو غرفة أخرى كنا قد بلغنا قمة الغثيان.. لم نعد نريد أن نرى أكثر، وهتفت ناديه في جنون:

. "أنتم تعذبون المرضى لا أكثر.. هذه سادية لا شك فيها.."

قال ببرود:

. "هل لي أن أعرف خبراتك العتيدة في الطب النفسي؟"

. "لا أعرف شيئًا عن الطب النفسي، لكني أعرف الكثير عن السادية

والوحشية والقسوة.. أتمنى ان يجد مديركم نفسه في غرفة واحدة مع هذين الكلبين.. ثق أنني سأكتب من طرقكم هذه ولسوف أطلب أن تحقق لجنة من وزارة الصحة في هذا المكان المشبوه"

كنت أكره طريقتها هذه التي تخلو من تقدير الخطر.. نحن هنا في ضيافتهم وتحت رحمتهم، ومن الوارد أن يغيروا كل شيء.. في مثل هذه الأمور عليك أن تنتظر حتى تعود لجريدتك ثم تكتب ما تريد..

قال الطبيب في برود:

"لست مؤهلاً للإجابة عن سؤال كهذا.. أرجو أن تأخذي رأي د. أنطوان"

ثم أعلن في اشمئزاز:

"لقد انتهت الجولة.. يمكنكما العودة لغرفتيكما أو التجوال بحرية.. شكرًا"

هكذا وجدنا نفسينا وحيدين مطرودين تقريبًا.. وكان الليل قد اقترب، فمشينا في الحديقة..

هناك كان مرضى آخرون يبدو أن حالتهم أفضل.. بعضهم كان يلعب الكرة وبعضهم يجلس على (دكك) خشبية يتبادل الحديث، والبعض كان يلعب كرة السلة.. هنا ملعب سلة ضيق ليست فيه سوى شبكة واحدة.. من يسدد فيها يحرز نقطة في الفريق الآخر..

هنا فقط استطعت أن أمد يدي للحقيبة الصغيرة وألتقط بعض الصور. يجب أن نداري العيون فيما بعد حتى لا يقاضينا أحد. رحت أدور حول الحديقة الأنيقة وأغير من زوايا اللقطات، على حين جلست نادية – بطريقتها المسيطرة التي تذكرك بمدرب فريق كرة القدم – على

دكة في نهاية الحديقة، تجاور غابة أشجار صغيرة، وراحت تسجل بعض الملاحظات، ثم هتفت تناديني بلهجة آمرة:

- "عصام.. تعال هنا.."

كدت أرفض التلبية لتتعلم انتقاء نبرات صوتها، ثم وجدت نفسي أمشي نحوها متسائلاً، فقالت وهي تشير إلى حوض الزرع خلفها حيث زرعت بعض الأزهار:

- "ما رأيك؟.. هذه الأبصال نامية في مواضع كثيرة وضامرة تمامًا في مواضع أخرى.. أنت تعرف أنني تخرجت في كلية الزراعة قبل أن أصير صحفية.. معنى هذا أن هناك من يرتكب خطئًا فادحًا بأن يقلب التربة باستمرار فلا يمنحها فرصة النمو.."

- "ومعنى هذا؟"

- "لا أدري.. تعال نواصل جولتنا.."

نهضنا ورحنا نمشي.. كانت هناك بناية صغيرة لا يوجد رجال أمن خارجها، وكانت هناك لافتة تقول (التمريض). مشينا في هدوء في رواق فارغ ولم أنس أن ألتقط بعض الصور..

قالت همسًا وهي تتقدمني:

- "غريب.."

- "ما الغريب؟"

- "أنت لا تفكر بشكل منطقي.. لو كانوا فضوليين لدرجة أن يراقبونا في غرفتينا، فكيف يسمحون لنا بكل حرية التحرك هذه؟"

- "نحن في مصر.. لابد من واحد اسمه (رجب) أو (عوض) صدرت له التعليمات بمراقبتنا لكنه تكاسل ونسي الأمر وجلس يدخن المعسل.. لا شيء يتم بدقة الساعة في مصر ولسنا في أحد سجون ميونيخ.."

رفعت إصبعها إلى شفتيها لتمنعني من الكلام ودنت من نافذة صغيرة تعلو بابًا مغلقًا، وألقت نظرة.. دنوت منها وحاولنا ألا يظهر من وجهينا شيء أسفل العينين..

بالفعل هناك أربع من الممرضات يجلسن حول منضدة، وكن منهمكات جدًا فلم تر إحداهن هذين الجاسوسين وراء النافذة.. كان هناك مسدس في منتصف المائدة وهو من الطراز الذي يعمل بالساقية.. الممرضة الأولى تتناول المسدس وتدير الساقية عدة مرات ثم تغمض عينيها وبيد راجفة تلصق الفوهة بصدغها.. تتلقى رصاصة وهمية ثم تفتح عينيها وتضحك.. تناوله لزميلتها لتدير الساقية..

هذه المرة كان الذعر أقوى مما نتصور فتبادلت نظرة هلع مع ناديه..

هذه لعبة الروليت الروسي.. لا شك في هذا.. ساقية المسدس فيها طلقة واحدة والمسدس يدور إلى أن تتلقى تعسة الحظ الطلقة في رأسها.. الممرضات في هذه المصحة يلعبن ألعابًا غريبة، وقد كنت أحسبهن يلعبن (الشايب) و(الكومي) في وقت السهر الطويل الممل. دعك من أنهن مثقفات جدًا..

هنا أدرنا عينينا فوجدنا أربع الممرضات ينظرن للنافذة الصغيرة التي نطل منها..

ينظرن نحونا !!

• • •

كاللصوص رحنا نركض في الرواق فارين.. ثم خرجنا إلى الحديقة.. لم يتبعننا، لكنهن رأيننا.. لا شك في ذلك.. لا شك في ذلك..

قالت ناديه هي تلهث:

"الأمر واضح . لا يردن شوشرة.. كن يقمن بهذا سرًا.. ".

قلت لها وأنا موشك على الإصابة بنوبة قلبية:

"أعتقد أن علينا أن نذهب لغرفتينا ونفتح عيوننا جيدًا.. ".

كان الظلام قد هبط على الحديقة، وأضيئت الأضواء معطية ذلك الجو الكئيب للحدائق التي تنار بضوء خافت. قالت لي ناديه ونحن نتحرك نحو غرفتينا:

"أريد التنقيب في هذا المكان جيدًا.. هذه المصحة غامضة كالموت.. سوف نتحرك في الثانية صباحًا.. لا تنر أي شيء في غرفتك وغادرها خلسة ومعك الكاميرا.. سوف نلتقي في الحديقة.. "

كنت أؤمن مثلها أن هناك شيئًا مريبًا.. لكني بصراحة لم أملك الشجاعة اللازمة لهذه المغامرة الليلية. كل شيء يوحي بأننا في مكان مريب.. هناك لغز يجب أن نحله، وعلى كل حال تنجح الأنثى الشجاعة دومًا في أن تجعل الرجل شجاعًا.. هكذا في الظلام وعندما صارت الساعة الثانية بعد منتصف الليل غادرت غرفتي ومشيت إلى الحديقة حيث كانت تنتظرني.. هل هناك كلاب يطلقونها في الحديقة ليلاً؟.. لا أعتقد وإلا لمزق نباحها الصمت..

كانت تحمل في يدها ميدالية صغيرة تطلق ضوءًا خافتًا رفيعًا.. بخطوات ثابتة مشت (ناديه) في الحديقة وهي تنظر حولها بحذر. كانت تتجه إلى البناية الإدارية حيث مكتب المدير. هناك شيء غريب.. لا أحد يقابلنا على الإطلاق.. لا رجال أمن.. ما معنى هذا؟.. إما أن التراخي هنا شديد، أو هم - كما يقول الغربيون - يعطوننا حبلاً طويلاً نشنق أنفسنا به..

كانت تذكر المكان.. الرواق الأنيق بين التماثيل التي تبدو حية.. لكن المكتب كان موصدًا بعناية. هناك غرفة جانبية كتب عليها (المعرض). أزاحت الباب بحذر ودخلنا..

هناك على الجدران وعلى ضوء الكشاف الخافت، كانت مجموعة من الصور بعضها بالأبيض والأسود يعود للستينات من القرن الماضي، وبعضها حديث ملون.. استقرت عينانا على وجه الطبيب الذي يظهر في كل الصور والذي يبدو أن مكانته عالية الشأن.. إنه المدير بلا شك.. يقف وسط مجموعة ممرضات ويصافح وزير صحة سابقًا.. لابد أنه مدير المصحة نفسه.. لابد أنه د. أنطوان..

الآن أنا مذعور فعلاً.. هذا الوجه لا يمت بصلة لدكتور أنطوان الذي قابلنا !

إن من قابلنا لم يكن هو مدير المصحة.. دعك من أنني لا أميز أي وجه قابلناه هنا.. كل الأطباء في الصور لهم ملامح مختلفة وكذلك الممرضات..

لم تتكلم ناديه.. غادرت الغرفة في صمت فالبناية وأنا خلفها أحاول أن أفهم..

في صمت اتجهت إلى صوبة صغيرة خلف الأشجار فدخلتها وأنا مندهش، ثم عادت حاملة رفشًا مما يستعمله البستانيون.. وقالت:

"أعتقد أن عليك أن تقوم ببعض الحفر".

في ضوء النجوم اتجهت إلى تلك الرقعة التي كانت أبصالها لا تنمو بانتظام، وناولتني الرفش وطلبت مني أن أحفر.. مجنونة ولا شك...

صويت الكشاف إلى التربة التي أحفرها بلا براعة.. وفي النهاية

اصطدمت بشيء صلب.. على الضوء الشاحب أرى تلك الجمجمة والشعر الآدمي واليد المتقلصة.. ارتجفت.. هنا انطلق ضوء الفلاش الساطع للحظة. لقد كانت تحمل الكاميرا الخاصة بي.

."جرب مكانًا آخر.."

اتجهت إلى مكان آخر ورحت أحفر..لم أستغرق وقتًا حتى وجدت القدم البشرية شبه المتحللة..

."أعد تغطية كل شيء قدر المستطاع"

وهكذا أهلت التراب وأنا أرتجف.. الرائحة ذاتها بدت كريهة جدًا كأن هذه الطبقة من التربة كانت تخفيها. الأبصال تلقت أفضل سماد ممكن، لكنها أصرت على عدم النمو في تربة غير ثابتة..

سمعت عن المرضى الذين يموتون ويدفنون في السجون السياسية، لكن لم أسمع عن المرضى الذين يدفنون في ذات المصحة.. أحقًا لم يشعر أحد باختفائهم؟

."لا تتحركا !"

هذه كانت من الخلف.. استدرنا لنجد رجل أمن ضخم الجثة يصوب كشافًا نحونا، ولاحظت أنه غير مسلح.. لكنه يحمل جهاز اتصال صغيرًا ينوي استعماله.. كانت نظرة عينيه مفترسة فعلاً وأدركت أنهم سيؤدبوننا بالتأكيد..

قالت ناديه وهي تنظر في عينيه:

."معذرة.. لقد أراد صديقي أن يفرغ مثانته.. إنه أحمق كما ترى.."

لكن الرجل بالطبع لم يبتلع هذه الحيلة السخيفة.. لا أحد يتبول وهو يحمل رفشًا.. رفشًا؟؟

قبل أن أدرك أنني فعلت ذلك هويت على عنقه بالرفش الذي كان في يدي.. لم أعرف أنني بهذه القوة إلا عندما سقط على الأرض بلا كلمة. مستحيل !.. لا أحد يموت بهذه السهولة، دعك من أنني لم أقتل قطًا في حياتي..

رحت أرتجف بلا توقف، وكدت أصرخ لكن ناديه قالت وهي تحاول التماسك:

."هلم.. هلم . لم يكن ليتركنا.. دعك من أنك لم تكن لتكسب أي التحام جسدي معه.. كان سيهشم عنقك كالجزرة"

ثم ركعتْ جوار جثته وراحت تعبث.. حتى انتزعت مجموعة مفاتيح من حزامه..

قالت في خبث وهي تلوح بها:

."هذه هي الجائزة الكبرى.. سوف نبحث ونوجه أسئلة.. لابد من أسئلة.."

."والقتل؟.. أنا قتلت !"

."سأشهد أنه دفاع عن النفس... لو كان ما أعتقده صحيحًا، فلسوف يوجه لك رجال الشرطة عبارات المديح !"

• • •

رفع الأستاذ سامي عينيه عن رقعة الشطرنج.. كان ينظرلنا في دهشة وقد وقفنا في حجرته / زنزانته.. بدا هشًا ضعيفًا جدًا.. قالت له ناديه وهي تجلس على حافة الفراش:

."أنت طبيب.. الأطباء والممرضات بالخارج هم المجانين الذين استولوا على المصحة.. أليس كذلك؟.."

ارتجفت شفته السفلى، وخيل لي أن في عينيه نظرة أمل.. فأردفت ناديه:

."لقد حطموك بالتعذيب حتى لم تعد تجرؤ على الكلام.. لا تجرؤ على الاعتراف.. لكننا سنحررك"

قال وهو يغطي عينيه:

."لقد ثاروا علينا منذ أسبوعين.. قتلوا معظمنا.. استولوا على ثيابنا وكل شيء، ثم دفنوا ضحاياهم في الحديقة.. وبدءوا يعالجوننا بطريقتهم الخاصة.. لن تهزموهم أبدًا.."

ثم انفجر في البكاء..

نظرت لي ناديه في انتصار.. ونهضت..

."الآن سنلعب دور سبارتاكوس"

وانطلقت لا تلوي على شيء تفتح أبواب الغرف المغلقة بما معها من مفاتيح الحارس.. فتحت باب غرفة مصطفى.. صرخت كالمسعورين ثم هوت بالرفش على السلسلة التي تربطه بالجدار فتحرر..

هرعت إلى غرفة أخرى فحررت (عفاف).. المرأة التي تكتب خطابات تطلب فيها الغوث. جرى القط مذعورًا بينما نظرت لها المرأة في توجس، فصاحت ناديه:

."من أنت؟.. لا تخافي.. لقد تحررت !.. أنت ممرضة.. اليس كذلك؟"

قالت وهي تبكي:

."أنا عفاف.. مشرفة تمريض.. لقد . لقد.. لقد...."

لقد كادت تصير منهم..

في الغرفة التالية حررنا اثنين لا نعرفهما، ثم وثبت ناديه فوق الفضلات التي تحيط بالفتاة التي تعتبر نفسها ذئبًا.. هوت فوق السلاسل فحطمتها..

خلال نصف ساعة صار المكان يعج بالذين تحرروا.. عددهم نحو العشرين.. كلهم ذاهل لا يصدق، والحقيقة أن أكثرهم كان سيصل للجنون الكامل خلال أيام لو تركناهم.. أطباء وممرضات وعمال ثار ضدهم المجانين وسيطروا على المصحة...

بقي أن نتصل بالشرطة كي تأتي حالاً...

لكن هؤلاء التعساء كانت لديهم خطط أخرى.. كان الانتقام يعمي عيونهم، وللحظة بدا لي أني أرى ميلاد الثورة الفرنسية.. لقد أشعل أحدهم مشعلاً وخرج إلى الحديقة.. بينما جاء أحدهم بمجموعة سكاكين من المطبخ..

صحت فيهم:

"لا ترتكبوا جرائم !... لا تفعلوا مثلهم.. إنهم غير مسئولين عما فعلوه.. هم مجرد مجانين ولن تدينهم أية محكمة.."

لكن شيطان الانتقام خرج من مكمنه.. وسمعت صرخات من الحديقة، وتعالت ألسنة النيران..لقد صار المشهد جحيميًا.. كانوا يقتلون كل طبيب وكل ممرضة أو رجل أمن يرونه.. بحثت حولي عن ناديه وسط هذه الفوضى فلم أجدها..

رأيت في الحديقة رجلاً يزحف زحفًا والنار مشتعلة فيه.. لما دنوت منه عرفت أنه ذلك المجنون الذي تقمص شخصية د. أنطوان عند لقائنا.. الرجل الأزرق.. جريت ورحت أمرغه في الغبار محاولاً أن أطفئ النيران.. في النهاية أطفأته لكنني أدركت أنه يحتضر..

هززته في عنف بلا شفقة:

."أين د. أنطوان؟.. هل دفنتموه في الحديقة؟"

قال بصوت مبحوح:

."يا أحمق.. أنا د. أنطوان !"

."لا تخدعني.. أنا رأيت صوره الحديثة وهو لا يشبهك أبدًا.."

."أنا مصاب بمرض نسيجي اسمه تصلب الجلد Scleroderma .. ولو كنت تفهم حرفًا في الطب لعرفت أنه يغير ملامح الوجه بالكامل.. أي طبيب يرى يدي وزاوية فمي الشبيه بفم السمكة كان سيخبرك بهذا.. لم يعد وجهي يمت بصلة لوجهي.. القديم.."

."وهذه المقبرة الجماعية في الحديقة؟.. ألم تدفنوا الأطباء بها؟"

."بل هم ثلاثة من المرضى ناقصي الأهلية ماتوا.... أثناء تجربة.. لم أجسر على.. تحمل المسئولية.. دفنتهم هناك.. ولم يدر أحد...... بهم.."

ثم شخصت عيناه وقد فارقه السر الإلهي..

تركته حيث هو وهرعت وسط الدخان والنيران أبحث عن ناديه.. ناااديه !.. نااديه !...

كانت هناك على باب إحدى الغرف وقد انثنى عنقها بزاوية لا يمكن وصفها.. ولا يمكن تخيل أنها بقيت حية.. كانت الزنزانة أو الغرفة هي الخاصة بالأستاذ سامي.. لا أعرف لماذا قررت أن أدخل وألقي نظرة على رقعة الشطرنج.. هذا الهاجس الخفي..

لمحت الرقعة.. ملك الأبيض في وضع لا يحسد عليه.. كش مات... كش مات......؟؟؟؟

وعند باب زنزانة أخرى وجدت تلك المرأة عفاف تفتش عن شيء بلا توقف.. دخلت الغرفة فانتفضت ثم صاحت:

"المعادلة قد ضاعت.. لن يستطيع أحد أن يركب القنبلة السينية!".

خرجت إلى الحديقة لأرقب الهول الذي يدور..

أشرس المقاتلين كان تلك الفتاة ممزقة الثياب.. كانت تحتبي على الأرض احتباء، ثم تصدر عواء، وفجأة تثب في الهواء لتنشب أسنانها في عنق ذلك الحارس أو ذاك.. وكان يتهاوى خلال ثوان وقد أوشك عنقه على أن ينفصل..

سوف أفر من هنا.. ماتت ناديه.. الآن أنا طفل مذعور لا يعرف ما يجب عمله..

هل فعلاً قمنا بتحرير مجموعة من الأطباء البائسين الذين سيطر عليهم المجانين؟.. ربما.. الأطباء النفسيون لا يعالجون المرضى بالبعوض والملاريا والكلاب، والممرضات لا يلعبن الروليت الروسي في وقت الفراغ، والأطباء النفسيون لا يدفنون مرضاهم في الحديقة... ولربما كان موضوع داء التصلب الجلدي هذا أكذوبة..

لكن..

ربما ارتكبت غلطة عمري وحررت أخطر مجموعة من المجانين لتفتك بأطباء هذه المصحة.. ناديه ألهمت المجانين بحيلة تحررهم عندما راحت تسأل كل واحد في حماقة: "أنت طبيب أليس كذلك؟.. انت ممرضة.. أليس كذلك؟". د. أنطوان هو نفسه وقد تغير شكله كما قال.. عفاف تبحث عن القنبلة السينية، والمحاسب قتل ناديه لأنها كانت أمامه في لحظة (كش ملك)، والفتاة تتصرف فعلاً كذئب آدمي.. وهؤلاء المدفونون مرضى ماتوا بسبب إهمال طبي.. هذا احتمال مقبول.. ممرضات يلعبن الروليت.. من قال إن المسدس حقيقي أو محشو؟..

نحن لم نسمع صوت طلقات رصاص.. لقد رأين اللعبة في فيلم أجنبي ما مثل (صائد الغزال) وقررن أن يلعبنها بمسدس أطفال.

أخطر مجموعة من المجانين المسلحين.. حررتهم أنا بعبقريتي وعبقرية ناديه.. هي دفعت الثمن أما أنا فالدور علي..

أم هم أطباء استبدت بهم شهوة الانتقام لدرجة الجنون؟

كنت أركض نحو البوابة إلى أن استوقفني صياح أحدهم. نظرت للخلف فوجدتهم يحيطون بي:

"أنت محررنا.. لا تتركنا... أنت بطلنا!".

يحيطون بي حاملين المشاعل، واللهب يضيء وجوههم المعذبة المتعبة التي تلوثت بالدم.. وجوه شوهها انعكاس الضوء والظلال فبدت كوجوه شياطين..

"لا تتركنا..".

هكذا أقف أنا وسط هذه الحشود.. أقاوم الشعور الغريب بأن هذا كابوس سوف أفيق منه..

لا أعرف حقًا: هل أصبت أم أخطأت؟... هل أنا عبقري منقذ.. ام أنا أكبر أبله عرفه التاريخ؟

تمت

لست وحدك

هذه البقعة في السقف.. ليست وطاويط محتشدة.. إنه كائن شبيه بالبشر يلتصق بالسقف كالبرص.. لا أعرف شكله بالضبط لأنه في الظلام، لكنه كائن حي ويشبه البشر كما قلت لك... هناك واحد آخر كذلك.. لهذا لا أجد هذا المتسلل.. إنهم يتسلقون للسقف ويحشرون أنفسهم هناك كسحالي الإجوانا.. يجب أن أغادر هذا الممر لأنهم سوف يهبطون فوقي في أية لحظة...

المذيع:

لا تقلق يا مروان.. أعرف أنك تسمعني لأن موجات الهاتف المحمول تخترق هذه الصخور بمعجزة ما.. أنا كذلك أسمعك لكن يسمعك معي ملايين المستمعين بلا مبالغة، في كل الدول الناطقة بالعربية.. قلوبنا معك ونأمل أن تنجو.. نعرف أنك ستنجو..

مروان:

يسرني أن أسمع صوتك يا عمر.. وبهذا الوضوح.. هذا يجعل موقفي أقل كآبة.. إن الظلام دامس لكن الضوء الأزرق القادم من شاشة المحمول يخففه قليلاً... الهواء رائحته غريبة، والتنفس عسير نوعًا.. أضف لهذا أن الحر خانق هنا.. لحظة.. سوف أتحرر من هذا القميص.. في الواقع سوف أتحرر من معظم ثيابي ما دام لا أحد يراني.. إن العرق يغمر كل شيء.. قل لي بصراحة: ما هي فرصتي في النجاة؟

المذيع:

إن قوات الجيش التي تحاول إخراجك تقول إن الأمل كبير.. يبدو أنهم سيستعينون بخبير مفرقعات كي يضع الديناميت في نقاط استراتيجية.. يقولون إن هذا سوف يخفف حمل الصخور ليمكن إزاحتها...

مروان:

آي.. ديناميت..!.. من الوارد جدًا أن أتحول إلى فتات..

المذيع:

هم يعرفون ما يفعلون..

مروان:

بيني وبينك.. حتى لو فشلوا سيكون هذا أفضل بمراحل من الموت هنا جوعًا وظمأ وربما اختناقًا...

المذيع:

لا أريد أن أقلقك.. لكن هل الهاتف المحمول مشحون بما يكفي؟

مروان:

قمت بشحنه صباح اليوم.. لن يستمر للأبد وإنني لأكره أن أرى اللحظة التي ينقطع فيها الشحن.. هذا لا يعني الصمت والعزلة فقط.. بل يعني الصمت والعزلة والظلام.. أعتقد أنني سأجن وقتها.

المذيع:

أرجو أن تكون قد خرجت قبل هذا.. لا أحد يتمنى أن تمر بلحظات كهذه.. للتذكير يا حضرات المستمعين، أو المشاهدين الذين لا يرون شيئًا مثلنا، نقول إن (مروان) طالب في كلية العلوم قسم الجيولوجيا، وقد كان مع رفاقه في تلك المنطقة من الصحراء الغربية يستكشفون مجموعة من الكهوف.. لسبب يتعلق بحماسة الشباب أو خرقهم قرر (مروان) أن يجرب ذلك الكهف وحده.. يبدو أن رفاقه كانوا مشغولين بالتقاط بعض الصور عندما تسلل هو إلى المدخل.. لم يكن ينوي التوغل.. فقط مشى عشر خطوات حسب كلامه، وهنا حدث انهيار أرضي عنيف.. تساقطت الصخور ولم تؤذه لحسن الحظ، لكنها سدت مدخل الكهف الذي كان هو نفسه المخرج.. ولسبب لا نفهمه ظل الهاتف الخلوي يعمل. من مكمنه في الظلام اتصل بأصدقائه يخبرهم بمكانه وأنه ما زال بخير، ويبدو أن لديه ما يكفي من الأكسجين، وقد اتصل رفاقه بالسلطات التي استعانت بعناصر من الجيش.. لكن المشكلة معقدة لأن الصخور التي تسد المدخل ضخمة وثقيلة جدًا.. لم تجد

المحاولات البطولية التي استمرت عدة ساعات. بالطبع لم تكن قناة (الشرارة) لتفوت هذه اللحظات، فانتقل فريق من مصورينا إلى مكان الحادث.. بالطبع لا يرى المشاهدون أي شيء سوى موقع الكهف وآثار الانهيار وفرق الإنقاذ، لكننا استطعنا الاتصال بمروان، وأنتم تسمعونه بوضوح... سوف نبقى على اتصال بكم إلى أن يتم تحريره من هذا الكهف..

(لمروان)

مروان.. هل هناك شيء مهم يخص هذا الكهف؟

مروان:

هناك كهوف غريبة جدًا في الصحراء الغربية.. مثلاً كثر الكلام مؤخرًا عن كهف الوحوش الذي اكتشفه بعض الهواة بالصدفة.. إنه على بعد 900 كيلومتر جنوب غرب القاهرة..لقد وجدوا فيه رسومًا غريبة جدًا تذكرنا بكهف تسيلي على حدود ليبيا والجزائر. هذه الرسوم تظهر حيوانات لم يرها إنسان من قبل.. وعمرها لا يقل عن ثمانين قرنًا في عهد كانت الأمطار فيه تغمر الصحراء الغربية، وكان هناك صيد وصيادون.. عندما ساد الجفاف تحرك الناس إلى دلتا النيل ليصارعوا النهر المتوحش ويروضوه.. كنت أعتقد أن هذا الكهف من تلك الكهوف الغامضة...

المذيع:

أكره أن أقول ما أقول لكني معجب بمعنوياتك.. يصعب أن يجد المرء نفسه في موقفك ويتذكر كل هذه التفاصيل..

مروان:

إنها تلك النعمة التي تجعلك تشعر بأن هذا كله غير حقيقي...

لهذا يتكلم من هو ذاهب إلى المقصلة مع جلاديه وربما يلقي بعض النكات... دعك من أنني تعلمت أنني أنجو من أقسى المواقف. القاعدة التي تنطبق على حياتي هي (عمر الشقي بقي)..

المذيع:

ما أكثر ما يضايقك الآن؟

مروان:

الحر.. الحر شديد خانق.. العرق يبلل كل شيء وعويناتي تنزلق كما أن الإمساك بالهاتف صعب..

المذيع:

هل لك أن تصف لنا الكهف؟

مروان:

إنه كهف.. لن أدخل في تفاصيل جيولوجية عن الصواعد والهوابط ونوعية الصخور.. لكن هناك ممرات جانبية لا يقل عددها عن أربعة، أكره تجربتها لأن هذا سيعقد مهمة البحث عني.. فقط هناك خلفي كومة هائلة من الصخور التي هوت... لقد نجوت بمعجزة...

المذيع:

هل هناك شيء يتحرك؟.. أية علامات على حياة؟

مروان:

لا أعتقد.. لو كانت هناك أفاع أو وطاويط فقد أفزعها الانهيار... لكن لحظة.. هل تسمع هذا الصوت؟... صه... هذا صوت خطوات؟.. بهذه السرعة قد...؟.... لكن لا... لحظة....

المذيع:

مروان.. نحن لا نسمع شيئًا.. هلا تكلمت من فضلك؟؟؟ مروان؟

• • •

المذيع:

لا أعرف ما حدث لكن المكالمة قد انقطعت.. هناك شيء خطأ لا أعرف ما هو.. سوف أجرب طلبه مرة أخرى.. لا أعرف ما رآه ولا سبب هذا التوتر في صوته.. صبرًا.. اطلبه لنا يا مراد من فضلك.. صوت جرس؟...جميل.. إذن الموجات لم تنقطع.. هلم رد يا أخي...

مروان (همسًا):

أنا في موضع آخر من الكهف.. انزلقت يدي فأغلقت المكالمة... أنا آسف... للحظة سمعت صوت خطوات ثم تهيأت لي رؤية شخص يمر عبر فتحة الممر.. لقد مر فعلاً هكذا جريت لألحق به.. أنا الآن في بداية ممر آخر وطبعًا لا يعكس الهاتف الكثير من النور، لكن من الواضح أنه لا يوجد أحد هنا..

المذيع:

وكيف كان يبدو (بفرض أنه ليس خيالاً)..

مروان (همسًا):

لا أعرف.. خيل لي للحظة أنه أطول من اللازم.. كان يمشي وقد انحنى للأمام.. لو شئت الدقة لقلت إن ركبتيه تنثنيان للأمام كذلك.. لكن كل هذا كان لجزء ضئيل من الثانية فلا يمكن أن يكون وصفي دقيقًا لهذا الحد.. أعتقد أن الظلام يوترني، ولربما بدأت أرى نيرون أو هتلر بعد قليل..

المذيع:

ولماذا تهمس؟

مروان (همسًا):

هذا الممر مليء بالمخابئ الجانبية.. ثمة احتمال لا بأس به أن يكون هذا الشيء هنا..

المذيع:

قلت إن.....

مروان:

بان إله المراعي عند الرومان.. هكذا كانوا يرسمونه كماعز تمشي على قدمين..نفس الطريقة العجيبة في انثناء المفصل للأمام..

المذيع:

لا أعرف الكثير عن الأساطير الرومانية، لكني أعرف فقط أنه لا يوجد شيء كهذا.. أعتقد أن نقص الأكسجين يلعب دورًا في هذه الرؤى.... لحظة من فضلك... (للمستمعين) لقد أغلقت الهاتف ومروان لا يسمعني الآن.. أسأل عن كمية الأكسجين المتاحة له الآن.. كم من الوقت يمكن أن يمر قبل أن يختنق.. معي هنا الجيولوجي (مصطفى إمام).. أنت سمعت السؤال...

مصطفى:

لا يمكن التحديد بالضبط.. لكن المدخل الوحيد الذي نعرفه للكهف مغلق.. ربما كان الكهف مليئًا بالهواء لكنه هواء فاسد غالبًا.. أعتقد أنني أعطيه ساعتين أو ثلاثًا..

المذيع:

أه.. هذا خبر سيئ.. لا أعتقد أن الإنقاذ يمكن أن يتم قبل هذا.. إنهم يتكلمون عن عشر ساعات على الأقل.. على كل حال مروان لم يسمع هذا الجزء.. سوف أتصل به من جديد.. آلو.. مروان.. كيف الحال؟

مروان:

لماذا أغلقت الهاتف؟

المذيع:

كانت هناك موجات تحدث ضوضاء.. لا عليك.. أرجو ألا تبتعد في هذا الممر حتى لا تجعل الأمر عسيرًا.. والآن هل يمكنك أن تصف لنا الممر الذي أنت فيه؟

مروان:

الإضاءة واهنة جدًا.. أعاني الأمرين كي أرى الجدران.. لكن.. لحظة.. أنا مدخن . نسيت هذا.. معي علبة ثقاب.. سأشعل عودًا لأجعل الرؤية أفضل.. (صوت العود).. هناك بالفعل وطاويط كثيرة تتدلى من السقف.. لم يزعجها الصوت.. كثيرة جدًا.. برررررر!

المذيع:

حاول ألا تستفزها...

مروان:

لست مجنونًا كي أفعل.. انطفأ العود... قل لي.. هل أبي وأمي يسمعانني الآن؟.. قل لهما إنني بخير وأحبهما جدًا.. قل لمروة أختي كذلك إنني أحبها.. لم أتعمد أن أحرجها أمام صديقاتها عندما... أنا طيب لكني أحمق مندفع.. هي تعرف ذلك..

المذيع:

ثق أن الغضب منك آخر شيء في ذهنها الآن... إنها تشاهد الصور معنا وتسمع صوتك وتدعو لك بالنجاة.. لا شك في أننا نعطل اتصال الكثيرين بك.. الهاتف مشغول طيلة الوقت بسببنا..

مروان:

(صوت عود آخر).. سوف أفحص الجدران.. تبًا...

المذيع:

ماذا هنالك؟

مروان:

هناك عظام جوار الجدار.. حيوان قد مات هنا منذ زمن.. ولكن.. لا.. هذه الجمجمة.. ليست لحيوان.. هذه جمجمة إنسان.. هناك كذلك عظمة ساعد ومجموعة من الضلوع..

المذيع:

هل تقصد أن هناك من مات هنا قديمًا؟

مروان:

لا أدري.. آي.. العود انتهى وأحرق أصابعي.. سأشعل عودًا آخر.. (صوت عود ثقاب)..هناك أكثر من هيكل هنا.. بل الكثير منها.. هناك خبر آخر هو أنني أرى قطعًا من قماش.. قماش حديث.. قطعة من قميص وعليه علامة التمساح الشهيرة.. يخيل لي أن هذه العلامة لم تكن توضع على ثياب رجال الكهف القدامى منذ 8000 سنة.. هناك بقايا سروال جينز كذلك.. لقد مات هؤلاء قريبًا جدًا..

المذيع:

ماتوا جوعًا وظمأ مثل.. أ..

مروان:

تقصد مثلما سيحدث لي؟.. لا أعرف.. لكني أرى العظام عن كثب.. هناك قطع لحم متحللة متشبثة بها. لماذا تبقى بعض قطع اللحم حول العظام بعد التحلل؟... (صوت عود آخر).. الجواب هو أنها تم تجريدها تجريدًا من اللحم بفعل فاعل..

المذيع:

هل تعني أن هناك وحشًا في هذا الكهف؟.. أسدًا صحراويًا أو ضبعًا؟

مروان:

ربما... لكن الخيال الذي رأيته كان يمشي على قدمين. إنني أفكر في أن تكون هذه الكهوف مأوى غول آدمي.. ربما عدد من الغيلان الآدمية.. وهذا لا يجعل وضعي أكثر أمنًا..

• • •

المذيع:

لا تؤاخذني يا مروان.. بصراحة أعتقد أن نقص الأكسجين قد بدأ فعلاً يؤثر على...

مروان:

قل ما تريد يا عمر... عندما أخرف فأنا أعرف بشكل ما أنني أخرف.. ثق أن حواسي مرهفة تمامًا وأعي كل شيء أراه وكل كلمة أقولها..

المذيع:

لكن.. موضوع الكهف العامر بالغيلان هذا... يبدو لي سخيفًا..

مروان:

أتمنى أن يكون سخيفًا وأن أكون أحمق.. لكن وددت لو كنت مكاني..

المذيع:

هناك ورقة جاءتني من الإعداد الآن.. شيء لا يصدق لكنه سيروق لك.. هناك ثلاث فتيات يتصلن بالبرنامج وهن يطلبن يدك..!.. نعم لا مزاح هنالك.. لقد صرت بطلاً قوميًا.. هناك مئات الأمهات يدعون لك ويبدو أن بناتهن يعتبرنك بطلاً.. على فكرة لقد عرضنا على شاشتنا صورة لك... سوف أفتح الخط ليصلك صوت واحدة تتصل بالستوديو من القاهرة.. أنا لم أرها.. اسمها (نرمين).. أليس كذلك؟.. (نرمين).. هل أنت معنا؟

نرمين:

نعم.. نعم.. هل هو يسمعني؟.. هل تسمعني يا مروان؟

مروان:

نعم يا نرمين . اسمعك..

نرمين:

سوف تخرج إن شاء الله وتنجو من هذه المحنة يا مروان.. لا تخف.. أنت لا تعرفني ولم ترني لكني أؤكد لك أنني سأكون خير خطيبة لك عندما تخرج من هنا..

مروان:

أنت رقيقة جدًا ومجاملة.. لكن لو قبلتِ بالزواج من كل شخص في ورطة فأنت نفسك في ورطة.. وقوعي في ورطة لا يعني أنني إنسان رائع..

نرمين:

سمعت صوتك ورصانتك وطريقتك في الكلام واحتفاظك برباطة جأشك وروح دعابتك.. أنا واثقة من أنك إنسان نادر..

مروان:

صدقيني.. قبل أن أسجن هنا لم تكن أية فتاة تهتم بي.. لا أجد سببًا قويًا كي يتغير هذا.. إن هذا يحدث كثيرًا للمحكوم عليهم بالإعدام في قضايا يتعاطف معها المجتمع.. إنهم يتلقون سيلاً من طلبات الزواج...

نرمين:

سوف تخرج من هنا وتعرف أنني صادقة.. و...

مروان:

يا للهول!.. إذن هذا هو ما كنت أحسبه... ليست وطاويط محتشدة!

المذيع:

لحظة يا نرمين.. عم تتكلم يا مروان؟

مروان:

هذه البقعة في السقف.. ليست وطاويط محتشدة.. إنه كائن شبيه بالبشر يلتصق بالسقف كالبرص.. لا أعرف شكله بالضبط لأنه في الظلام، لكنه كائن حي ويشبه البشر كما قلت لك... هناك واحد آخر كذلك.. لهذا لا أجد هذا المتسلل.. إنهم يتسلقون للسقف ويحشرون أنفسهم هنالك كسحالي الإجوانا.. يجب أن أغادر هذا الممر لأنهم سوف يهبطون فوقي في أية لحظة...

المذيع:

إذن ابتعد يا مروان عن هذا الممر... ثم نواصل الكلام... (يكلم شخصًا آخر).. لقد أغلقت الاتصال.. هل سمعت يا مهندس مصطفى؟.. هل تعتقد أن هذيان نقص الأكسجين قد بدأ؟

مصطفى:

واضح تمامًا.. إنه يخرف بلا زيادة ولا نقصان.. لا أعرف إن كان بوسع فريق الإنقاذ إدخال ماسورة تضخ الأكسجين أو شيء من هذا القبيل؟... إنه يحتضر ببطء..

المذيع:

هل من احتمال أن يكون صادقًا؟

مصطفى:

كيف به غيلان تلتصق بالسقف وتلتهم البشر؟... كم من الوقت بقي كي تهذي نحن؟

المذيع:

حسن. سأفتح الهاتف من جديد... مروان.. هل غادرت الممر؟.. آسف لأن انقطاع الخطوط يتكرر..

مروان:

أو لتقول ما لا تريد أن أسمعه.. لا مشكلة.. أنا الآن في المكان الذي كنت فيه عند البداية.. أو هذا ما أعتقده.. بيني وبينك.. لا أريد البقاء هنا.. لا أتوقع أن يصل رجال الإنقاذ.. سوف أجرب ممرًا آخر على اليسار.. من الوارد جدًا أن يكون هناك مخرج..

المذيع:

ولماذا لم يجده الذين ماتوا؟

مروان:

لأنهم لم يموتوا بالجوع أو الظمأ.. ماتوا لأن هناك من قتلهم والتهمهم.. ألا تفهم هذا؟.. واضح أنك لا تصدق حرفًا مما أقول.. على

كل حال أنا أتحرك الآن على ضوء الهاتف الأزرق الخافت.. أشعر بالظمأ الشديد.. لابد أنني فقدت لترين من الماء بسبب هذا العرق الغزير..

المذيع:

لا تصمت وصف لنا كل شيء..

مروان:

هذا الممر يختلف.. هناك قاعة.. قاعة في حجم غرفة نومي مرتين.. أرى في المنتصف تشكيلاً حجريًا غريبًا أقرب لمائدة.... بل هي مائدة فعلاً لأن عليها عظامًا..

المذيع:

هل هي بشرية؟

مروان:

لحظة.. أعتقد ذلك.. هي عظام صغيرة فلابد أن تكون طبيبًا لتحكم.. نسيت السقف.. يجب أن أرى السقف.. سأشعل عود ثقاب.. لا.. لا يوجد شيء على ما أعتقد... هناك في هذا الركن صخور ناتئة غريبة.. لا يمكن أن يكون هذا تكوينًا جيولوجيًا بل صنعته يد بشرية.. إنها درجات.. درجات تقود لأعلى...

المذيع:

هل تعني؟.. جميل . جميل.. ربما لو تسلقتها لبلغت مكانًا ما..

مروان:

لا أدري.. إن هذه الدرجات تقود لفتحة في سقف الكهف.. هناك وراءها ظلام.. لا أرى ضوء النهار... لكن لن أتردد طبعًا... سوف أتسلق!

• • •

المذيع:

هل تسمعني يا مروان؟.. هل تسلقت؟

مروان:

صبرًا.. إن التسلق ليس سهلاً... سوف أصمت قليلاً لأنني لا أستطيع التسلق بيد واحدة.. إن الهاتف المحمول يضايق حركتي وليست لدي جيوب أضعه فيها.. آه ه ه!!

المذيع:

مروان.. ماذا حدث؟

مروان:

لقد.. لقد انزلقت قدمي وسقطت... أرجو ألا يكون كاحلي قد.. لا.. فيما عدا الألم أنا بخير.. خفت كذلك أن يكون الهاتف قد تهشم لكنه بخير..

المذيع:

أرجو أن تكون حذرًا.. لو أنك تعرضت لكسر لا سمح الله........

مروان:

أعرف.. أعرف.. لو كنت محقًا بصدد هذه الكائنات فهي تملك ممصات قوية تثبتها في الصخور، لهذا تستطيع تسلق هذه الصخور الزلقة.. أنا لست مثلها.. سأحاول من جديد وبالطبع لن أتكلم..

(صمت طويل)

المذيع:

هل تسمعني يا مروان؟.. هذا الانتظار يحطم الأعصاب حقًا..

مروان:

تسلقت... أنا الآن في مستوى أعلى من الكهف.. هناك ضوء أحمر غريب يغمر المكان ولا أعرف مصدره لكنه يسمح بالرؤية.. كأن الصخر ذاته مشع. مثل.. مثل الفحم عندما تستقر النيران بداخله ثابتة واثقة فيبدو كحجر كريم... هناك رسوم على الجدران. رسوم تشبه تلك التي تراها على جدران الكهوف الغامضة الأخرى..

المذيع:

هل لك أن تصفها لنا؟

مروان:

هناك.. هناك رسوم تبدو كمجموعة رجال يلاحقون فريسة.. شيئًا يشبه الوعل. إنهم في كهف مغلق يتحسسون الجدران.. هناك ما يشبه مشاجرة.. مأدبة.. إنهم يتصارعون.. هناك ثلاثة يأكلون بقايا الآخرين... فهمت.. في وقت ما منذ ثمانية آلاف سنة سجن بعض الصيادين في هذا الكهف.. وقد اضطروا لأن يأكلوا الخفافيش ويأكلوا بعضهم البعض. مع الوقت تطورت هذه الكائنات على طريقة (هـ. ج. ويلز).. صارت غيلانًا حقيقية ترى في الظلام وتأكل اللحم النيئ وتمشي على الجدران.. هذا الكهف يعج بهم. لابد أن تحولاً جيولوجيًا ما أدى لفتح الكهف من جديد.. لكنهم لم يعودوا بحاجة للخروج.. لقد صاروا كائنات الكهف.. صار هذا عالمهم الحقيقي.. ربما يخرجون في الظلام لاقتناص فريسة والعودة هنا. وأعتقد أن العظام التي رأيتها كانت تخص مكتشفين حمقى دخلوا هنا ليكتشفوا الحقيقة المروعة قبلي..

المذيع:

نظرية معقدة جدًا.. ولماذا لم تهاجمك هذه الكائنات حتى الآن؟

مروان:

لا أدري.. ربما هم يرتبون ذلك الآن.. ربما يخشون ضوء الهاتف الأزرق الغريب.. ربما هم مندهشون لأنني وحيد وأتكلم.. لا أدري.... لكني لن أنتظر حتى يتشجعوا... لحظة.. هناك قطعة عظام.. إن ثيابي معي ربطتها كحرملة حول عنقي قبل التسلق.. سوف ألف الثياب على هذه العظمة وأصنع منها مشعلاً... سأشعل عود ثقاب...

المذيع:

أعتقد أنك تبالغ يا مروان.. لكن ما دام هذا يريحك..

مروان:

لا شيء يريحني سوى أن أرى ضوء النهار.. صدقني.. هناك عظمة أخرى مدببة سوف أستعملها كرمح... لا بأس... لست خائفًا الآن...

المذيع:

هل توجد مخارج في هذا الطابق الذي أنت فيه؟

مروان:

هناك حافة صخرية تشبه الشرفة.. وهي تطل على.. تصور أنني لم أر ما تطل عليه بعد..

المذيع:

لم لا تلقي نظرة ولكن بحذر...

مروان:

هذا هو.. رباه!... هذا مشهد لا يمكن وصفه.. إنني أطل على هاوية عميقة.. وفي هذه الهاوية تشتعل نار زرقاء غريبة.. هناك شياطين حقيقية ترقص حول هذه النار.. شياطين لا تمس الأرض بل تحلق..

من حين لآخر أرى هيكلاً عظميًا يرقص وسط اللهب.. هناك سلاسل تتشبث في لحم أناس معذبين يصرخون، وهناك كائن عملاق يشبه الوطواط يضحك... إن هذه رقصة الموت.. رقصة الجحيم.. إنني أرى مشهدًا من كابوس...

المذيع:

لقد أغلقت الهاتف أيها المستمعون.. يبدو لي أن هذه هي النهاية.... لقد فقد توازنه تمامًا.. سأفتح الهاتف.. مروان.. أنا هنا..

مروان:

أين ذهبت؟.. إن ذلك الوطواط العملاق يراني.. لقد بدأ يتحرك وسط اللهب الأزرق وهو ينظر لي.. ما أقبح وجهه وما أبشعه..!... اسمع.. سوف أفر من هنا.. سأهبط في الدرج إلى حيث كنت..

المذيع:

احترس يا مروان.. لقد كان الصعود الحذر صعبًا وكدت تكسر ساقك، فكيف بالهبوط الأخرق؟

(صوت صرخة)

• • •

المذيع:

مروان.. مروان!!!!

مروان:

أي!... أصبر يا أخي.. هذه المرة أنا في مأزق حقيقي.. أنا هنا في أسفل الدرج.. أي.. لقد تهشمت ساقي فعلاً.. العظمة في اتجاه آخر

تمامًا.. كاد الهاتف يتهشم لكني وجدته جواري بمعجزة.. إن المشعل هناك.. لكنه انطفأ..

المذيع:

إذن أنت الآن أسفل الدرج....

مروان:

نعم.. نعم.. القاعة التي فيها منضدة حجرية... هذه منضدة تقدمات على ما يبدو ويبدو أنني صرت فريسة ممتازة...

المذيع:

كف عن هذا الكلام.. سوف يصل رجال الجيش حالاً... (صوت انفجار).. هل تسمع هذا الصوت؟.. الديناميت!... لقد فجروا الصخور التي تسد مدخل الكهف... الفرج قريب....

مروان:

عرفت هذا لأن الحصى والحجارة تتساقط بغزارة فوق رأسي.. اهتز المكان بقوة.. قل لهم أن يسرعوا...

المذيع:

حاضر.. كف أنت عن استهلاك الأكسجين...

مروان:

ما زلت تعتقد أنني أهذي... لكن.. أنا أسمع أصواتهم.. أنظر لأعلى فأرى هذا الوطواط اللعين يطل عليّ من أعلى الدرج.. هناك كائنات تتشاور وتطل علي من فوق.. يبدو أنهم ينتوون النزول..

المذيع:

ماذا أقول لك؟.. اصبر يا أخي...

مروان:

إنهم قادمون.. لكني أؤكد لك.. سوف أموت وأنا أقاتل.. سأحطم رءوسهم بهذه العظمة... لو كانت لهم رءوس...

المذيع:

(صوت أحدهم يتكلم) اصبر يا مراد.. ماذا تريد؟

مراد:

(يهمس)

المذيع:

لقد أغلقت الخط.. ماذا تريد يا مراد؟... هذا ليس بالوقت المناسب..

مراد:

لقد تمكن رجال الجيش من فتح ثغرة ودخلوا الكهف.. إنهم بالداخل الآن..

المذيع:

رائع.. سيداتي سادتي.. إن هذا الفتى لمجدود الحظ.. وجدناه في ذات اللحظة التي بلغ فيها النهاية فعلاً.. لابد أن طائرة هليوكوبتر طبية سوف....

مراد:

لقد وجدوه فعلاً جوار المدخل..

المذيع:

جميل.. إذن لماذا لا نفتح الاتصال؟

مراد:

إنه ميت.. الفتى ميت وقد هشمته الصخور تمامًا.. لقد مات لحظة الانهيار الأول بالضبط.. يحاولون إخراج أشلائه الآن..!.. لم تكن عنده فرصة للمشي او الاتصال بك.. قلت لك إنه تهشم لحظة الانهيار!

المذيع:

يا سلام!.. إذن مع من كنت أتكلم لمدة ساعتين؟

مراد:

لا نعرف... أ.. بالمناسبة.. أمه متوفاة وأخته لا تدعى (مروة).. عرفنا هذا عندما اتصلت أسرته بنا!

المذيع:

كف عن السخف.. هل تسمعني يا مروان؟.. المفروض أن رجال الجيش عندك الآن..

مروان (يضحك بوحشية):

أعتقد أنك عرفت الحقيقة الآن... لكنك أحمق.. كلكم حمقى.. كيف تتصور يا جاهل أن تخترق موجات المحمول كل هذه الطبقات من الصخور؟.. إنه يعمل بصعوبة في الخلاء في هذه البقعة فكيف يكون الاتصال بهذا الوضوح من كهف منهار؟..

المذيع:

وكل هذا الكلام عن الغيلان وآثار الخطوات و.. و...؟

مروان:

لو كانت هناك حقيقة فهي أن هذا الكهف شيطاني.. كل الشياطين تحب العبث.. لقد أثرت خيالكم لفترة لا بأس بها، لكن الحفل قد انتهى

للأسف.. فقط أتمنى لو جاء المزيد من الفضوليين هنا ليروا بأنفسهم. سوف نمرح كثيرًا جدًا... هاهاها....! (ضحكات شيطانية عديدة)

(صوت صفير طويل)

المذيع:

(صمت طويل) في الواقع.. لا أعرف ما يجب أن يُقال.. لا أعرف شيئًا على الإطلاق.. سوف يعكف الخبراء على فهم هذه المكالمة وتحليلها.. لقد اعتدنا المزاح والدعابات العملية، لكننا لم نعتد أن تأتي التسلية من شيطان.. شيطان وجد جهاز محمول للمرة الأولى وقرر أن يعبث به. والسؤال الأهم هو هل هذا الشيطان تقمص شخصية مروان، أم أن مروان نفسه صار كذلك بعد.. بعد....؟... إنني صرت مخرفًا..... أعرف شيئًا واحدًا هو أن هذا الكهف يحوي سرًا مخيفًا ولو كنت أملك السلطة لقمت بتدميره بحيث لا يدخله أحد بعد اليوم.

مراد:

ثمة سؤال أخطر: كم من كلام الفتى كان صحيحًا وكم منه كان خداعًا؟

المذيع:

إن الرجال سوف يفتشون الكهف بالتأكيد.. سوف نخبركم بكل ما يرد إلينا بهذا الصدد.. تعازينا الحارة لأسرة الفقيد، أما الآن فلسوف نعود إلى الستوديو.. كان معكم (عمر الأسيوطي) مراسل قناة (الشرارة).

تمت

ليلة شتاء

كل هذا هراء طبعًا .. لكن لو فكرنا فيه لبدا مخيفًا ...

هذا يعني أن أحد الذين قضيت الأمسية معهم لا وجود له !... ربما هم جميعًا !

يطلق الغربيون على القصص البوليسية مصطلح (من فعلها ؟).. أي أن القاتل غير معروف.. وأحيانًا (كيف فعلها ؟) بمعنى أن القاتل معروف لكن الكشف عنه هو موضوع القصة .. للمرة الأولى أواجه اختراعًا جديدًا اسمه (من المفعول به ؟) !

وكما قال الشيخ فعلاً : هذه المرة القاتل معروف ... لكننا لا نعرف القتيل !

أنا

لا أحب مهنتي..

كلما مررت بموقف مشابه، دارت ذات الفكرة في ذهني. أنا لا أحب مهنتي.. قليل من الناس ممن عرفت يحب مهنته، ما لم يشعر بأنها رسالة مقدسة كما يفعل المدرس أو الطبيب أحيانًا، أو يجدها مجزية جدًا كما يفعل رجل الأعمال، أو هي فعلاً مهنة ممتعة، مثل ذلك الأخ (راي هاري هاوزن) الذي كان يصمم الوحوش في أفلام الرعب.. تخيل أنه يصحو من النوم صباحًا ويذهب لعمله ليصمم الوحوش حتى يحين موعد الانصراف!..

أنا لا أحب مهنتي، لكني لا أعرف سواها . عندما يستدعونك لموقع الجريمة في الثالثة صباحًا، فإنك تلهث من البرد والتوتر وأنت تتوقع تقريبًا ما ستراه.. بعد كل هذه الأعوام ما زلت لا أتحمل منظر الجثث الممزقة وأمقت رائحة الدم..

اسمي (عوني).. في الخامسة والثلاثين من العمر.. لا شك أنك عرفت مهنتي الآن.. أنا ضابط شرطة، وقد رأيت الكثير طبعًا لكن هذا لا يعني تصريحًا بالبرود أو اللامبالاة..

هناك حوادث تزلزل وجدانك فعلاً، وتتحدى ثباتك المهني.. مثلاً عندما تجد الطريقة التي شوه بها هذا السفاح ضحيته، والأسلوب السادي المريض الذي ترك به توقيعه، عندها لابد أن ترتجف..على أني كونت نظريتي الخاصة بعد أعوام: كل واحد يمكن أن يفعل أي شيء إذا اصابته حالة جنون وقتية، أو زال عنه قناع التحضر...

اما عن الطقس الرديء فموضوع آخر.. يصعب على المرء أن يتصور أن هذا عامل مهم في مصر، لكن بوسعي أن أخبرك بعشرات القصص التي رحنا نجري فيها التحقيقات في ظروف مستحيلة...

مثلاً قصة اليوم حدثت في عزبة خارج المدينة.. نحن قريبون من الاسكندرية جدًا لكن لن أعطي تفاصيل...

الآن يمكنك أن تتخيل ما يحدث.. أمطار غزيرة جدًا ..

في ليلة كهذه تتمنى فعلاً لو ظللت في فراشك، لكن جرس الهاتف يدق بإلحاح.. سوف تأتي السيارة لتأخذك حالاً.. هناك جريمة قتل..

أرتدي ثيابي، ومن تحتها بول أوفر ثقيل.. زوجتي تصر على أن أحترس من البرد، ولا أعرف كيف أحترس من البرد بينما كل ذرة في الكون باردة... احترس من الطريق.. كيف أحترس من الطريق وقد تحول لبحيرة، دعك من أن (بسيوني) هو الذي يقود وهو على درجة من العته..؟

في الطريق وسط حمى الوحل والبرق الذي يشق السماء والمساحات، أعرف من بسيوني التفاصيل:

."اتصلوا بنا وقالوا إن هناك رجلاً لا يعرفونه اقتحم العزبة، وقتل أحدهم بسلاح ناري.. ثم فر.."

أقول له وأنا أرتجف من البرد:

."ليست تفاصيل مفيدة جدًا.."

."سوف نعرف كل شيء.."

رباه!.. أنا لا أحب مهنتي.. كلما تذكرت أنني كنت في الفراش منذ نصف ساعة دافئًا أحلم...

أنا من ضباط الشرطة الذين يقفون في الركن.. في الزاوية الضيقة.. لم أشتم ولم أصفع متهمًا في حياتي، ولم أدس قطعة بانجو في جيب أحدهم، ولم أستغل سلطتي قط حتى في الحصول على رغيف خبز. وفي الوقت نفسه أنا بالنسبة للمواطن العادي ضابط مغرور سادي يستغل سلطته بالتأكيد.. لا أستطيع لعب دور الوغد، لكنهم يصرون على أنني كذلك...

باختصار أنا أنال النصيب الأسوأ من الجانبين..

السيارة تشق طريقها نحو تلك العزبة، وهناك عند ناصية الطريق يجلس ثلاثة من الخفراء يصطلون بالنار وقد تدثر كل منهم كرجل من الاسكيمو.. هناك خيمة من المشمع لتحميهم من المطر الغزير، ويقف أحدهم ليصوب علينا نور الكشاف القوي ويهتف:

."لا يمكن الوصول لهناك يا باشا.. سوف يفيض المصرف.. بعد ساعة سيتحول هذا كله إلى نهر عميق ولن تعرفوا أين الطريق.."

قلت له في عصبية:

."صوب هذا الكشاف على شيء آخر أولاً.. لا يوجد حل آخر.. لابد أن يذهب أحد هناك.. لن ننتظر حتى يأتي الربيع"

راح يصف لبسيوني طريقًا مختصرًا.. ثم دعانا لكوب شاي كنا سنرحب به طبعًا لو كانت الظروف تسمح...

ننطلق من جديد نحو تلك العزبة، بينما خزانات السماء تفرغ ما فيها فوق رءوسنا..

يقول بسيوني في توتر:

."هذه رحلة خطرة جدًا... ربما كان من الأفضل أن نعود..."

."لقد تمادينا بما يكفي.."

لسان برق يشق السماء من جديد... أتفحص الهاتف المحمول فأدرك أن الشبكة قد غرقت في الماء وماتت...

فجأة هتف بسيوني:

."إننا قد دخلنا العزبة فعلاً.."

هذا صحيح!

صحيح أن العاصفة توشك على اقتلاع كل شيء، والأمطار تجعل

الرؤية مستحيلة، لكن لا أعرف مكانًا آخر يمكن أن يكون مزروعًا بهذه الطريقة.. دعك من صوت خوار البهائم المذعورة في جرن ما، ونباح كلاب تعتقد أنها نهاية العالم، وذلك البيت المبني من القرميد...

هذه عزبة فعلاً..

ترجلنا محاولين أن نتماسك فلا نسقط في الوحل، وأضأنا الكشافات بينما تحسست مسدسي.. تبًا.. لقد ارتفع الماء لدرجة لا تصدق حتى أنني فتحت باب السيارة فتسرب للداخل..

اتجه بسيوني نحو الباب الخشبي العملاق ودق بيده الغليظة عدة مرات:

."افتح!.. بوليس!"

لحظات وانفتح الباب بشكل شحيح، وظهر وجه رجل مسن ريفي يرتجف:

."بسم الله الرحمن الرحيم"

الإضاءة ساطعة هنا لحسن الحظ...

ومن خلفه ظهر وجه رجل ريفي وسيم متأنق.. أعتقد أنه في الخمسين من العمر.... يلبس الجلباب الأبيض الفاخر المميز لأثرياء الريف. هذا سيد بلا شك.. سألته:

."عزبة الليثي؟"

."أنا محمود الليثي.. تفضلوا.."

عندما دخلنا إلى المدخل الأنيق المريح تنهدنا الصعداء، وشعرت بحرج من أحذيتنا المتسخة بالوحل، لكن نزع الأحذية ليس جميلاً من الناحية البوليسية..

."خيرًا إن شاء الله؟"

قلت له في حيرة:

-"أعتقد أن هذه العبارة جديرة بنا.. أنتم اتصلتم وتكلمتم عن جريمة قتل"

نظر لي في دهشة.. ثم نظر للعجوز..

-"أعوذ بالله يا باشا.. لم يحدث شيء من هذا.."

بلاغ كاذب إذن؟.. سيكون هذا أسخف مقلب شربته في حياتي......

لكن في الوقت ذاته كنت أنظر إلى الأرض.. إلى طرف الجلباب الأبيض.. هذه قطرات دم طازج. دم لم يتغير لونه بعد، ولا يمكنه إقناعي بأنه كان يذبح الطيور في هذه الساعة وهذا الجو..

البلاغ غير كاذب..

ويبدو أننا وجدنا القاتل بسرعة كذلك!

• • •

قلت في ضيق وأنا أرتجف:

-"لا تحاول إقناعي أن ما حدث كان دعابة سخيفة.."

ابتسم.. كان من الطراز الثقيل جدًا الذي لا يهتز لشيء.. الصراع العقلي معه ليس هينًا. قال في لهجة آسفة باطنها المزاح:

-"هذه هي الحقيقة... لو كنا نعرف أنكم قادمون لقتلنا أحدًا!"

في هذه اللحظة كان آخرون قد جاءوا من الداخل..

هناك شابان في سن المراهقة امتلأ وجهاهما بالنمش، وكانا يلبسان منامتين صوفيتين ثقيلتين.. بعد هذا ظهر طفل مذعور في نحو السابعة.. النوم واضح تمامًا في انتفاخ العيون واحمرار الآذان والغربال الذي رسم معالمه على بعض الخدود....

."ماذا حدث يا بابا؟"

نعم . هم إذن يستعملون لفظة (بابا).. قال (الليثي) في ثبات:

."لا شيء.. عد واكمل نومك.."

ومن موضع بالداخل رأيت شبح امرأتين.. يبدو أن هناك واحدة شابة وواحدة أكبر سنًا.. كانت كل منهما تلف ما يشبه (الطرحة) على رأسها على سبيل إتقاء البرد والحشمة..

."محمود.. هل من شيء؟.. لماذا الشرطة هنا؟"

كان الصوت يدل على أنها في الأربعين وجميلة غالبًا... لما لاحظ أننا ننصت صاح في حزم دون أن يلتفت للخلف:

."أدخلي أنت وابنتك!.. ما شأنك بهذا؟"

انتظرت حتى توارات الأنثيان وقلت وأنا أشير لحذائه:

."هل تريد القول إن هذا الدم صدفة؟"

نظر للجلباب ثم قال باستخفاف:

."وما في ذلك؟.. إنني أذبح كل يوم.. نحن عدم المؤاخذة فلاحون..."

."في هذه الساعة؟.. ووسط هذه العاصفة؟"

."هل يوجد ما يمنع يا باشا؟.. لابد للنسوة من إعداد الخروف الذي سنطهوه غدًا"

ساد الصمت ونظرت لبسيوني ونظر لي.. لا يوجد ما نعمله بعد هذا. هل أنت متأكد من أنه لا يوجد هنا شخص آخر؟.. خادم أو خادمة؟.. شخص يرقد كجثة الآن؟

قال الليثي ضاحكًا:

"لا شيء من هذا... كل الموجودين في هذه البناية يقفون أمامك، أما عن المستأجرين في الخارج فلا أعرف عنهم شيئًا الآن ولو ماتوا جميعًا فلن أعرف.."

تبًا..أنا لا أحب مهنتي.. نظرت لساعتي ثم تأهبت للخروج مما أضحك الجميع.. كأنني أكبر أحمق قابلوه في حياتهم، وكنت كذلك فعلاً:

"هل تمزح يا باشا؟.. لقد فاض المصرف.. العزبة كلها صارت بحيرة ولن تستطيع بلوغ السيارة أصلاً لأنك ستهوي لتغوص في الوحل.. ولو تحركت السيارة فسوف تنغرس للأبد.."

في غيظ قلت:

"وما الحل؟"

"الحل أن تبقوا معنا هنا حتى تتحسن الأمور.. البيت بيتكم ونحن كرماء والله العظيم.. في الصباح ربما نجد طريقة للعودة.."

هذا لن يكون.. المبيت هنا.. زوجتي..

جربت الهاتف الجوال عدة مرات.. كأننا في الأعوام التي سبقت اختراع الشبكة أصلاً.. على كل حال زوجتي تعرف أنني أحقق في جريمة قتل ولم أخرج لشراء سجائر.. أنا لا أحب مهنتي.. لا أحبها بتاتًا..

هنا صاح في زوجته:

"يا إنصاف!!"

كأن المرأة تلقت باقي الرسالة، وسرعان ما اقتادنا الخادم العجوز إلى غرفة مسافرين واسعة، فنزعنا أحذيتنا وجلسنا على أرائك عالية..

"خذا راحتكما.. البيت بيتكما"

وسرعان ما انفتح الباب ليدخل العجوز حاملاً دورقًا لغسيل اليدين وطستًا ومنشفة، ثم اختفى من جديد وعاد هذه المرة بصينية عملاقة عليها طيور محمرة كثيرة جدًا، وإناء تتصاعد منه رائحة البازلاء، وأرز ورقاق... ما هذا؟.. هل هم مستعدون بالأكل طيلة الوقت؟.. وهل لا يوجد عندهم وقت بين الفعل ورد الفعل؟ وضعوا الصينية على الأرض فالتففنا جميعًا حولها... ألم يتناول هؤلاء عشاءهم؟.. أم هم مستعدون للعشاء في أي وقت؟

انقض بسيوني على الطعام طبعًا، أما أنا فاكتفيت ببعض لقيمات.. لست مرتاحًا لهذه الوجبة ولا هذه الأسرة أصلاً... ثم أن الطعام الساخن سيؤدي دور المخدر معي وأنا لا أريد هذا...

- "كل يا باشا.. كل لتقاوم البرد.."

ثم أشار إلى الفتيين المراهقين اللذين كان كل منهما يعرق دبوس دجاجة بأسنانه:

- "هذان (سامي) و(مصطفى)... ابناي.. طالبان في الثانوي... أما هذا الصغير فهو (رأفت) وهو في المدرسة الابتدائية.. لي ابنة واحدة في سن الجامعة، لكني بينك وبينك أكره أن أرى حريمي في الشارع والشباب ينظر لهن.. لقد اخترت لها عريسًا.."

قلت كلامًا عامًا على غرار (ربنا يخلي).. ثم أعلنت أنني راغب في الذهاب للحمام..

نظر (الليثي) للعجوز الذي فهم على الفور، فأسرع يسبقني نحو خارج الحجرة.. وكان هناك قبقاب ناولوه لي، فصرت كأنني راقص كاريوكا في جزر الكاريبي.. ضوضاء رهيبة فعلاً...

الآن أمشي وسط ممرات مظلمة كئيبة.. من مكان ما ظهر مصباح كيروسين فحمله العجوز في يده وهو يسبقني...

لم تكن دورة المياه رائعة لكنها أدت الغرض على كل حال، ثم أن الظلام دامس والبرد شديد.. لا أهتدي إلا بالضوء الخافت من المصباح... هناك دلو ماء غسلت به يدي ثم خرجت من الحمام..

هنا رأيت العجوز ينظر لي في ثبات.. ماذا يريد؟...

كان يشير بطرف خفي إلى غرفة جانبية.. بإصرار شديد كذلك...

ماذا يريد؟.. يريد أن أنظر دون ضوضاء... لكن ماذا هنالك؟

زججت برأسي في الغرفة واشعلت عود ثقاب كان في جيبي..

هنا كتمت صرخة...

• • •

كانت الغرفة لا تزيد على متر في متر اتساعًا، ومشيدة من القرميد الأحمر فلم يعن أحد بتغطية جدرانها، كما كانت هناك خراطيم كهرباء وأسياخ حديدية.. المشهد الذي طالعني على ضوء عود الثقاب المتراقص كان جثة على الأرض، ويبدو أن الماء يتسرب هنا بشدة لأنها كانت وسط بركة. انتهى الثقاب فأشعلت ثقابًا آخر وعلى الضوء أدركت أنها جثة رجل.. عدد هائل من الطعنات والضربات لا يمكن عدها.. نظرة رعب على الوجه..

واضح أنه ريفي وإن لم يكن يلبس الجلباب . من الصعب أن أدقق في ملامحه التي تشوهت بهذا الشكل. لكن أهم ما في الموضوع هو أن هناك عددًا من الخرق والأكياس الممزقة قد ألقي فوقه.. هناك من حاول إخفاء هذه الجثة عن العيان..

انطفأ الثقاب فأشعلت عودًا ثالثًا.. نعم.. في يده طبنجة.. لكن ليس من الحكمة أن أفحصها لأن البصمات ستكون ثمينة جدًا..

على كل حال حان الوقت.. مددت يدي لنطاقي وأخرجت المسدس

الحكومي.. هنا شعرت بالشيخ يضع يده على يدي.. رأيت في وجهه نظرة مناشدة ألا أفعل شيئًا..

- "سأشرح لك كل شيء لكن ناشدتك بالله أن تخرج من هنا.."

لسبب لا أعرفه قررت أن أثق به.. لا أعرف يقينًا ما سوف أفسده لكنني لن أخاطر بذلك..

ماذا يمكن أن يحدث؟.. معي مسدس ومع بسيوني مسدس، ومعنا سلطة القانون، ومن المعروف أننا هنا.. ربما كان من الحكمة أن نصغي ونسمع ولا نفعل شيئًا مؤقتًا..

لكن ما يجب أن أتذكره هو أن هذه الأسرة تعرف أشياء لا تعترف بها.. هم يكذبون فعلاً...

طعام مسموم؟.. لا.. لن يخاطروا بهذا.. دعك من أنهم أكلوا معنا بلا حذر وبلا انتقاء..

عدت لغرفة المسافرين حيث كانت عملية الالتهام مستمرة. جلست على الأريكة فزام (الليثي) محتجًا وهتف بفم مليء باللحم:

- "طلبت الذهاب للحمام وليس إنهاء وجبتك"

- "سفرة دائمة.."

وتربعت على الأريكة وأشعلت لفافة تبغ مع كوب الشاي الذي جاء.. لا أنكر أن الجو منوم ومدوخ. الدفء!.. الدفء المقيت!. العاصفة والبرد بالخارج وأنت هنا دافئ.. لكنك لست آمنًا! لا تنم.. لا تنم!

رباه!.. أنا أمقت مهنتي فعلاً..

لما انتهت الوجبة وغسل الجميع أيديهم نظر الليثي في ساعته.. إن الوقت متأخر جدًا لكن يبدو أن النوة لا تريد أن تهمد قليلاً..

أمر الليثي الشيخ بأن يجلب لنا ما يلزم للنوم.. سرعان ما ظهرت

حشيتان ووسادتان وملاءات.. الكثير منها.. وسرعان ما تحولت الأرضية إلى عنبر نوم..

قلت له وأنا أقاوم رغبة عاتية في أن أدس نفسي في بحر الدفء هذا:

- "نحن لا نريد أن نزعجكم.. إن هي إلا ساعات ونرحل.."

طبعًا كان ما يدور في ذهني هو أن هذه ليست بداية النهاية.. بل هي نهاية البداية على رأي الخواجة تشرشل.. هناك جثة ممزقة في الداخل، ومن مزقها واحد من هؤلاء على الأرجح..

قال الليثي بشخصيته الكاسحة وهو يساعد على فرد الحشية:

- "لا تتفاءل يا باشا.. ربما طال الأمر.. على كل حال نحن لم نتجشم جهدًا.. كل شيء موجود.."

جلست على الأرض.. ووضعت مطفأة السجائر على حجري.. ثم نفضت السيجارة وسألته:

- "هل العاملون بالعزبة هم كل من قابلناهم؟"

- "نعم . لكن قلت لك من قبل إن هناك مستأجرين للأرض.. لا أعرف شيئًا عنهم طبعًا، فلابد أنهم في أكواخهم يرتجفون من البرد.."

جثة ممزقة هنا.. لو كانت من أفراد الأسرة لقالوا لي.. إلا إذا كانوا يمارسون أسلوب (أومرتا) عندما ينكرون أي شيء أمام الشرطة لأن لديهم أجندتهم الخاصة للثأر.. ربما... أما لو لم تكن الجثة من الأسرة فالاحتمال القريب هو أن القاتل واحد منهم.. هكذا تتعاون الأسرة كلها على خداعنا، ولا يعرفون أن الشيخ خائن..

أخيرًا صرت وحدي مع بسيوني.. كان قد أكل كثور حتى صار يتنفس بصعوبة، وقال لي وهو مغمض العينين:

- "هل أطفئ النور يا باشا؟"

لم أرد.. نهضت وأغلقت النور أنا.. هنا سمعت (بسيوني) يقول في الظلام:

."والله أهل كرم فعلاً... خ خ خ!"

تفكيره عملي جدًا.. لقد ظفر بأقصى ما يمكن أن يظفر به وهو وجبة دسمة، وترك لي أنا القلق والخواطر السوداء.. ترى من هو الأذكى؟ . أين مسدسي؟.. يجب أن يكون معي تحت الوسادة..

كنت أعرف يقينًا أن محاولة اتصال أخرى ستتم..

متى؟.. يجب أن أظل متيقظًا..

لابد أن نصف ساعة قد مر، عندما لمحت ذلك الشبح المنحني يدخل الغرفة.. فتحت عيني في الظلام وأنا أعرف من هو.. ثم سمعت صوت الشيخ الهامس..

."يا باشا!"

يزحف على الحشية إلى أن صار عمليًا ينام جواري!.. طريقة غريبة جدًا في التبسط..

تحسست المسدس ثم سألته بذات الهمس:

."ماذا تريد؟"

قال وهو يرتجف:

."الميت الذي رأيته... اسمه (أبو زبيدة).. لابد أنك سمعت عنه"

أبو زبيدة!.. من لم يسمع عنه؟.. القاتل المأجور الذي شيب أهالي المنطقة وحيرنا معه. إنه اسم رنان مخيف.. هارب من عربة السجن منذ عشر سنوات، وعليه حكم بالإعدام. استقر في القرى هنا وله أصدقاء وأقارب يدارونه.. لكنه يملك شبكة اتصالات ممتازة ويمكن لمن يريد قتل أي واحد أن يتصل به .

من الممكن أن تجد ضحايا (أبو زبيدة) لكن من العسير نوعًا أن تجده هو نفسه!

قال الشيخ وهو يرتجف:

"هو القاتل!".

قلت في غيظ:

"ما شاء الله.. هو القاتل.. ومن الذي قتله (أبو زبيدة)؟.. ومن الذي قتل (أبو زبيده)؟".

نظر حوله في الظلام ثم همس:

"هذه هي المشكلة.. نحن نعرف القاتل.. لكننا لا نعرف من هو القتيل!".

• • •

الليل والدفء الذي بدأ يضرب بناره في أطرافي وخدي وصوت الشيخ الهامس.. اشعر أن هذا كله حلم سوف أفيق منه حالاً.. الأجمل أن (بسيوني) لم يصح بعد مما جعلني أتساءل عن المؤثر الذي يمكن أن يجعله يفيق منزعجًا.. هل هو ذبحُنا؟

المشكلة أن جهاز اللاسلكي لا يعمل بل يحدث هذا الأنين الغريب كأنه كلب مخنوق. لا شك في أنهم قلقون علينا ولا يعرفون أين نحن، لكن لا حيلة أمامهم لأن هذه العزبة صارت خارج الزمن فعلاً. لا أعتقد أن الصباح سيسمح لنا بالرحيل، لأن كل هذا الوحل لن يزول قبل يوم بشرط توقف الأمطار.

صوت الرعد يدوي.. كأن هناك حقل ألغام ينفجر بالخارج..

أقول للشيخ مغتاظًا:

"عم تتكلم بالضبط؟.. ما هذا الهراء؟.. نحن نعرف القاتل.. لكننا

لا نعرف من هو القتيل!.. ثم من سمح لك بأن تتسلل إلى هنا أصلاً؟.. "

يصغي لي وهو يضع سبابته على شفتيه محاولاً جعلي أخفض صوتي..

كان ينظر نحو الباب ثم دفن رأسه تحت البطانية..

لم أتحرك.. أدرت عيني بخفة فرأيت الباب ينفتح ببطء.. الضوء يتسرب بذلك التأثير الشعاعي المعروف، ثم يملأ فرجة النور ظل فارع لرجل ينظر لنا...

فارع القامة ضخم البنية.. لا يوجد أشخاص كثيرون لهم هذه الصفات....

يلقي نظرة كأنه حارس يطمئن على أملاكه.. ثم يغلق الباب ثانية...

بعد دقائق أخرج الشيخ رأسه وراح يلهث.. يبدو أنه كان سيموت خنقًا.. قال لي:

. "يريدون التأكد من أنك لست فضوليًا ولن تذهب هنا أو هناك"

. "من هم؟... عم تتحدث؟"

أغمض عينه وراح يتكلم..

رباه!.. لن أنسى أبدًا نبرات صوته المسن.. صوت رجل دنا من النهاية أكثر من اللازم، وصار يعرف أكثر.. الظلام والليل والحاجة إلى أن تتخذ قرارًا سريعًا..

قال لي بذلك الصوت الرهيب:

. "لم نعرف أي شيء غريب إلا في العام 1986... ليلة عاصفة مثل هذه.. (الليثي) الكبير المسن كان في غرفته، وقد أوشك على النوم، ثم خطر له أن المواشي ثائرة أكثر مما يجب . خطر له أنها تتعرض لخطر أو هناك من يسرقها، أو ربما هناك ثعبان تسلل لها..

"المهم أنه ارتدى معطفه الثقيل والتف بالتلفيعة، وخرج في العاصفة ليرى ما يدور هنالك. أنا كنت نائمًا ولم أعرف ما اعتزمه.. لم يعرف أحد أنه خرج.. كان لا يهاب شيئًا على الإطلاق.

"لكنه نسي.. نسي كابينة التفتيش التي كانت تُبنى، وبالطبع هناك إهمال في كل صوب . كان هناك كابل ضغط عالٍ عارٍ يتدلى حرًا.. لقد أسقطته الرياح وصار يسبح في الماء. في الثانية صباحًا سمعنا صرخة عالية، وصوتًا يشبه الشرر الكهربي، وانقطع التيار الكهربي للحظات. خرج الجميع مذعورين يتساءلون عما حدث، فوجدنا الليثي الكبير واقفًا في مدخل الدار.. قال لنا ألا نقلق، فقد حركت العاصفة الكابل لكن كل شيء على ما يرام، ثم اتجه لغرفته ونام فعاد الجميع لغرفهم..

"في الصباح لم يكن في غرفته.. بحثنا كثيرًا وفي النهاية وجدناه ميتًا بالخارج قرب كابينة التفتيش. كان متصلبًا وقد تقلصت ذراعاه على صدره شأن من تلقى صدمة كهربية، وعندما حاولت أن أنهضه صفعتني الكهرباء وألقت بي مترًا للخلف.."

كنت أصغي للقصة نافد الصبر، فقلت له في ضيق:

."لحظة.. قلت إنه بات في غرفته.."

."هذا ما رأيناه.. لكننا عرفنا أنه مات فعلاً صعقًا بالكهرباء عندما داس على ذلك الكابل.."

."يا سلام.. ومن ذلك الذي فسر لكم كل شيء؟"

."هذا هو السر.. سر آل الليثي.. لا يعرفه إلا قليلون . وفيما بعد قالت لي أم (خضر) العجوز التي تعمل في هذا البيت قبلي بعقود ذات القصة.. هناك شيء غريب يتعلق بهم، ويحدث في أوقات معينة. عندما يموت بعضهم تبقى منهم رؤى تتكلم وتمارس الحياة لبضع ساعات، حتى لتحسبهم لم يموتوا بعد.. ثم يزول الوهم فتجد الجثة وتفهم"

ـ "تعني أن ذلك الشيخ مات، لكن روحه أو طيفه هو الذي عاد للدار وتكلم معكم؟"

ـ "هذا ما أعنيه يا باشا "

ـ "جميل.. جميل... وأبو زبيده هذا؟"

سعل الرجل ثم تمالك نفسه ودفن الغطاء في فمه كي لا يرتفع صوته.. ثم قال:

ـ "كح كح!.. لقد تسلل للبيت وقتل أحداً.. أنا واثق من هذا.. هناك خلافات ونزاعات كثيرة حول الأرض والحدود والري، فلا أستبعد أن هناك من استأجره للقتل.. ثم انتقم منه أهل البيت وقتلوه وأخفوا جثته حيث رأيتها.. المشكلة أننا لا نعرف من الذي قتله أبو زبيده!"

هنا كان صبري قد انتهى، فأخرجت مسدسي من تحت الوسادة ولوحت به:

ـ "مشكلتك أنت بسيطة جداً.. لو لم تنصرف بتخاريفك لفجرت رأسك ولن أبالي بالعواقب!!"

لم يبد خائفاً جداً.. فقط نهض في صعوبة وزحف على ركبتيه نحو الباب وأنا أطلق السباب:

ـ "مجنون وأحمق.. إن خرف الشيخوخة قد........"

أخيراً انغلق الباب وعاد الهدوء...

ومعه راحت أفكاري تتسابق..

كل هذا هراء طبعاً.. لكن لو فكرنا فيه لبدا مخيفاً...

هذا يعني أن أحد الذين قضيت الأمسية معهم لا وجود له!... ربما هم جميعاً!

يطلق الغربيون على القصص البوليسية مصطلح (من فعلها؟).. أي أن القاتل غير معروف.. وأحياناً (كيف فعلها؟) بمعنى أن القاتل

معروف لكن الكشف عنه هو موضوع القصة.. للمرة الأولى أواجه اختراعًا جديدًا اسمه (من المفعول به؟)!

وكما قال الشيخ فعلاً: هذه المرة القاتل معروف... لكننا لا نعرف القتيل!

• • •

لا أعرف كيف نمت..

هذا الجو النفسي لا يغري بالنوم أبدًا، لكن الدفء والظلام يصنعان المعجزات.. دعك من أن صوت العاصفة بالخارج يجعل التأثير أسوأ.

لقد ذبت في الدفء.. انزلقت قدماي ببطء في حفرة من الشيكولاته الدافئة، فلم أعد أستطيع التملص...

في المنام رأيت زوجتي.. رأيت أبي.. رأيت......

ثم سمعت صرخة مكتومة.. بشكل ما اقتحمت الحلم كما يحدث في (أحلام المنبه) الشهيرة، وهكذا صحوت من النوم وأنا أرتجف.. استغرقت قرنين حتى أتذكر أين أنا..

أخذت مسدسي.. المعدن البارد الثقيل المطمئن في يدي. ونهضت.. طبعًا لا داعي لأن أوقظ بسيوني..

هرعت إلى حذائي فانتعلته وفتحت باب الحجرة، ووقفت أنصت قليلاً...

صوت الرعد هذا..

في الخارج كان هناك ظلام دامس وبرد قارس.. لابد من أن أشعل عود ثقاب. أشعلت العود ورفعته ورحت أرمق الردهة على الضوء المتراقص...

في اللحظة التالية ظهر ضوء متراقص.. ورأيت مصباح كيروسين في يد شخص، لكن بالطبع كان الضوء يأتي من أسفل فلم أتبين الملامح...

سمعت صوت الليثي فعرفت بعبقرية أن هذا هو الليثي.. كان يقول:

."أنت سمعت ما سمعته يا باشا.. أليس كذلك؟"

ابتلعت ريقي وظللت أصوب المسدس نحوه فقال في ثبات:

."ابعد هذه الطبنجة عني فأنت سيد العارفين.. وتدرك أن (السلاح قد يطول)"

ثم تقدم بذات الثبات ماشيًا في الردهة.. ومشيت وراءه مهتديًا بالضوء الذي يحوم حوله. سألته وأنا أمشي بحذر:

."لم مصباح الكيروسين؟"

."يبدو أن الكابل قد ضرب.. الظلام دامس فلا نستطيع أن نتبين السبب.."

في نهاية الممر كان ما يبدو كمطبخ واسع. تأكدت عندما دخلت أنه مطبخ فعلاً... مطبخ ريفي ذو فرن واسع لخبز الفطير، وهناك عدد كبير من الآنية والدلاء..

فقط يجب أن أقول إن رائحة الموت كانت غالبة...

تسألني عن رائحة الموت.. لا أعرف كيف أقول.. فقط لو قضيت في هذه المهنة فترة طويلة لتعلمت كيف تشمها مثلي..

هناك جثة هنا ولتقطع ذراعي إن كنت واهمًا...

كان هناك حوض غسيل.. درت حوله وانتظرت حتى لحق بي فسقط الضوء على الأرض، وهنا أجفلنا معًا..

كان العجوز الذي تسلل لغرفتي هناك..

كان راقدًا على ظهره وقد ارتسم الفزع على ملامحه. لكن هذه الملامح كانت رخوة فقدت قدرتها على التشكل.. إنه ميت....

ركعت جواره وتحسست نبضات عنقه، ثم ألقيت نظرة على عنقه.. كان هناك ذلك الحبل الغليظ يلتف حوله في حقد. هناك من خنقه من الخلف، وهذا قد حدث منذ دقائق.. على الأرجح عندما سمعت صوت الصرخة...

."ميت؟"

تساءل الليثي وهو يرفع المصباح أكثر، فهززت رأسي..

الآن جاءت لحظة الحقيقة.. هناك من قتل هذا الشيخ وهناك من قتل أبا زبيدة.. القاتل موجود هنا ويجب أن أقوم بعمل الشرطة المعتاد...

كل شيء يشير إلى أن الليثي الكبير من فعل هذا.. على قدر تصوري لا يوجد واحد قريب من هذا الجزء من البيت من أفراد الأسرة. دعك من أن أفراد الأسرة كلهم لا تسمح حالتهم الجسدية بعمل هذا.. هذا عمل رجل بالغ..

لكن لماذا؟

من قتل هذا الشيخ ولماذا؟

الإجابة المنطقية هي أنه عرف أكثر مما يجب أو تكلم أكثر مما يجب.. هناك من أراد أن يخرسه قبل أن يتكلم أكثر...

ما الذي عرفه أكثر من اللازم؟

هنا أستعيد قصته الغريبة السخيفة وأرتجف.. هل في هذه القصة شيء من الحقيقة؟.. مصرعه يؤكد بشكل ما أنها حقيقية.. هناك من يهمه ألا يتسرب هذا الخبر، وهذا الشخص هو غالبًا من قتل (أبا زبيده)...

كان الليثي يسألني:

."من فعل هذا؟.. الرجل عاش بيننا زمنًا طويلاً.. من الكافر الذي......"

هنا كنت أهرع في الظلام نحو الغرفة التي كنا نائمين فيها، فوجهت ركلة من فوق الأغطية لجسد بسيوني الذي نهض مذعورًا مبسملاً محوقلاً، وشعره المنتفش وجسده الدافئ يوحيان بأنه كان في الجنة تقريبًا، فقلت له بصوت عال:

"حان الوقت لتنهض".

ثم عدت إلى الردهة حيث كان الليثي يراقبني كأنني مجنون... صوبت المسدس إلى رأسه وقلت بصوت كالصراخ:

"الآن أنا أعرف أن من قتل هذا ومعه (أبو زبيده) هو واحد منكم.. إنه تحت سقف هذا البيت!"

ضرب كفًا بكف.. وقال:

"يا فتاح يا عليم.. من أبو زبيده يا باشا؟".

"أنت أدرى!".

هنا سمعت أصوات الأسرة..

ببطء يظهرون وهم يفركون عيونهم.. لابد أن صراخي سبب فوضى عارمة في هذا البيت.. هناك من يحمل المصابيح...

رأيت الفتيين المراهقين والصبي.. ومن ركن الباب أدركت أن المرأتين هناك...

قلت وأنا أصوب المسدس نحو الجميع وبيد راجفة نوعًا:

"بسيوني.. هناك جثتان في هذا البيت.. الجثة الأولى لأبي زبيده.. أنت تعرفه.. كل المنطقة تعرفه.. الجثة الثانية للشيخ الذي كان يقدم لنا العشاء.. من قتل هذين موجود هنا.. تحت هذا السقف... إنه واحد من هذه الوجوه.."

يا لأعصاب الليثي!... لم يهتز شعرة ولم يندهش.. فقط تولى

قيادة الموقف بذات الطريقة السابقة، وقال وهو يشير بيده إلى الغرفة التي كنا فيها:

- "لكن يا باشا.. يمكن أن تقول هذا كله ونحن جلوس.. سوف اسمع الكلام ذاته حتى لو لم تصرخ!"

ثم صاح في امرأته:

- "الشاي يا إنصاف!"

قلت وأنا أتراجع:

- "لن أذوق طعامًا أو شرابًا في هذا البيت.. لا أريد أي شيء سوى تفسيرات!"

- "ولك هذا!"

• • •

جلسنا جميعًا في قاعة المسافرين.. يا لها من ليلة!... أنا بالفعل أمقت مهنتي..

لكنها لم تعد ليلة بالضبط.. نحن نقترب من الصباح جدًا، لكن كيف تتوقع أن تشرق الشمس في هذا الصباح؟ ظلام.. كأننا في الشتاء القطبي..

ضوء الكلوب يتوهج بصوته وفحيحه المميزين.. الصوت الذي كان يفتنني عند باعة الفاكهة الساهرين..

من حولي جلس أفراد الأسرة.. البعض افترش الأرض والبعض جلس على الأرائك العالية.. كان المسدس في يدي، لكن عدم مبالاتهم به جعلني أشعر بأنه بلا قيمة.. هناك هيبة للأسلحة النارية.. يجب أن يرتجف الناس عندما تصوبها نحوهم وإلا بدا الأمر مخيفًا..

بسيوني كذلك راح يحك صدره وبطنه كأنه مفعم بالبراغيث،

ولم يبال بأن يخرج مسدسه.. لا شك في أنه جائع ويتمنى لو لم تدلهم الأمور بهذا الشكل ليقدموا لنا الإفطار..

قلت لليثي ضاغطًا على كلماتي:

. "أرجو أن تنضم لنا السيدة والابنة.."

قال في ثبات وهو يحدق في عيني:

. "أما هذا فلا.. ليس للحكومة شأن مع حريم بيتي"

لم أرد أن أضغط طبعًا.. ثم تذكرت أن زوجته ليست من الأسرة.. فعلاً لا دخل لها بالقصة . سألته بقدر ما استطعت من تهذيب:

. "ليكن.. المدام ليست من الأسرة على كل حال"

قال بثبات :

. "بالعكس.. هي ابنة عمي !.. أنت تعرف الريف.. أنت متزوج من ابنة عمك منذ لحظة ميلادك"

هذا يعقد الأمور.. الكل مشتبه فيه إذن..

وهنا ومن دون أن أعرف كيف، رأيت امرأة وفتاة تتقدمان لتدخلا القاعة.. نظرة نارية توهجت في عين الليثي لكنه على ما يبدو قرر أن يؤجل الانتقام لحين..

كلتاهما كانت تلف طرحة على رأسها وشعرها بحيث لا تبدو سوى العينين تقريبًا.. لكن ما تبدى من الوجه كان ينم عن حسن، وبالفعل كانت الزوجة في الأربعين أما الفتاة ففي سن الجامعة..

. "سلامو عليكم"

ووقفتا جوار الباب صامتتين في مشهد شبه جنائزي..

قال الليثي بعد ما استعاد ثبات صوته:

"خيرًا يا باشا؟.. تقول إن هناك جثتين في البيت.. الشيخ المسن وجثة أخرى.. أنا رأيت الأولى لكن ماذا عن الجثة الأخرى؟".

هنا صرخت المرأة:

"جثة؟.. عم تتكلمون؟".

صرخة جديرة فعلاً بزوجة تكتشف أن في بيتها جثتين.. هذا يتهمها بالإهمال وعدم النظافة.. الزوجة النشيطة تعرف على الفور أن هناك جثة في بيتها..

قلت:

"هذا ما أتوقع أن أعرف إجابته.. جثة قاتل مأجور اسمه (أبو زبيده) والكل هنا يعرفه.. أنت تعرفه.. إنه في غرفة مقفرة جوار المرحاض وقد تلقى عددًا هائلاً من الطعنات..".

شهقت المرأة بينما ظهرت الاستثارة في عيون الشباب.. أكثرهم بالطبع كان الصغير (رأفت). نظرت له لبعض الوقت.. يا لشحوبه!.. أعرف أن الأطفال فريسة دائمة للديدان والطفيليات، لكن على قدر ما أعرف لا يتجاوز الأمر بعض البقع في الوجه.. لكن للمرة الأولى أدقق في وجهه فأجده شاحبًا جدًا... هذا غريب..

قال الليثي وهو يتحسس شاربه:

"أنا لا أعرفه.. ولا أفهم لماذا يأتي قاتل مأجور ليموت في داري..".

"كنت آمل أن تفسر لي هذا..".

كانت هناك بقع دم على جلبابه فلماذا؟.. قال إنه كان يذبح حيوانًا.. لماذا يذبح المرء ليلاً ووسط هذه العاصفة؟.. ما سبب هذا الحماس؟.. ثم لماذا لم يكن هناك لحم حيواني على مأدبة العشاء؟.. كان الطعام كله طيورًا..

قالت المرأة بصوت مبحوح:

- "يا قاعدين يكفيكوا شر الجايين!.. نحن أكثر الأسر احترامًا في البلدة.. لا شيء من هذا يحدث عندنا.."

كأن وجود جثث في البيت يدل على عدم الاحترام.. لماذا تلتف المرأتان بهذا الشكل؟.. إنه يتحدى الحشمة أو التدين، بل هو منظر مرعب يذكرني بالمجذومين كما كانوا يظهرون في الأفلام التي تدور في القرون الوسطى..

قال الليثي بذات الحزم:

- "صمتًا يا إنصاف.."

هنا قال أحد المراهقين وهو من يدعى مصطفى:

- "سمعت عن أبي زبيدة هذا.. هو رجل مخيف.. لكن من قتله وكيف؟"

مط عنقه للأمام.. هذا الجرح الغائر في العنق يبدو لي أعمق من اللازم.. والغريب أنه يانع أحمر اللون.. ليس جرحًا قديمًا لكن لماذا لم يضمده أحد؟

رأسي يوشك على الانفجار.. رباه!.. يجب أن أتخلص من قصة الشيخ وأفكر بشكل مادي عقلاني.. يجب أن اتخلص من هذه الفكرة الحمقاء. لو صدقت نفسي لتصورت أن كل واحد من هؤلاء ميت فعلاً...

على كل حال لو كانت القصة صحيحة – وهذا مستحيل - فلسوف يسقط واحد من هؤلاء ميتًا ونكتشف أنه كان كذلك منذ جاء البلاغ. ولو كانت خاطئة فعلي أن أتصرف كشرطي.. يجب أن أطلب المدد وأطلب خبراء المختبر الجنائي..

لكن كيف وهذا اللاسلكي لا يعمل؟

قال الليثي وهو يشعل لفافة تبغ:

"سيدي.. لا أعرف ما تفكر فيه ولا ما تنتويه، لكني بالفعل لا أملك تفسيرًا.. ما أستطيع قوله هو أن بوسعك الانتظار ضيفًا كريمًا في داري، إلى أن تستطيع طلب رجالك أو مغادرة المكان.. بعدها قم بتحقيقاتك وتصرف.. أما أنا فلدي كلام كثير عن الأمن في هذا البلد، حيث القتلة يقتحمون بيوت الأبرياء.. كنت أحسب هذا من عمل الأمن وضمن مسئولياته"

واحد من هؤلاء ميت!

واحد من هؤلاء ميت!

الفكرة لا تفارق ذهني.. تبًا لها..

الأدهى أن يكونوا جميعًا موتى...

ربما كان آل الليثي الحقيقيون موتى في غرفة أخرى الآن وأنا جالس مع أطياف..

قلت لليثي وأنا أنهض:

"أريد تفتيش البيت من فضلك.. من حقك أن ترفض لكن..."

قال في ثقة وهدوء:

"لا داعي.. ليس لدي ما أخفيه.. هيا بنا.."

وحمل الكلوب.. ثم استدار لي فلحقت به.. طلبت من بسيوني أن يبقى حيث هو. طبعًا كنت أرغب أن يراقب الباقين.. فقط أرجو أن يكون قد فهم هذا، فغباؤه يثير انبهاري..

• • •

قلت لك إنني لا أحب مهنتي..

ثقيلة متعبة مفعمة بالشك والكراهية والتوتر.. أنت ترى الإنسان

في أسوأ حالاته كضحية أو كمجرم. لن تتضمن مهنتي بالتأكيد توزيع أزهار على الأيتام أو سماع آخر مقطوعة لشتراوس..

رحت والليثي نفتش البيت...

في الظلام يصير هذا عملاً عسيرًا شديد التعقيد.. خاصة وأنك تخشى من يرافقك. لهذا كنت أجعله يتقدمني باستمرار والكلوب في يده.. هذا بيت ريفي عملاق فيه كل ما يخطر ببالك عندما تتخيل منزل ريفي موسر الحال. كانت هناك بعض الغرف يتسرب الماء من سقفها غير المحكم، وكانت هناك جثتان واحدة في المطبخ وواحدة في تلك الغرفة التي لا لزوم لها جوار الحمام..

لا يوجد شيء غريب.. باستثناء الجثتين طبعًا..

لكني شعرت بشيء من الراحة عندما دخلنا قاعة سقفها مكون من عروق خشب غير محكمة، فرأيت أن السماء ليست سوداء.. إنها رمادية.. ثمة بصيص نور بدأ يتسلل برغم أنه ليس كافيًا لترى.. قطرات ماء تتساقط، لكن لا شك في أن العاصفة تزول...

قال الليثي ببسمته الواثقة التي تربكني بشكل غريب:

."أظن أننا رأينا كل شيء يا باشا.. هل يمكن أن تكف عن هذه الجولة؟"

فجأة سمعنا صوت جلبة.. كأن هناك من يتشاجر أو يصيح. بسيوني!...

وقبل أن أفهم ما يحدث كان الليثي قد أطلق سبة واندفع يسبقني نحو مصدر الضوضاء، لأجد نفسي واقفًا في الظلام.. هرعت أحاول اللحاق به لكن خطواتي لا تألف هذا المكان، خاصة وهو يحمل الكلوب، والضوء الرمادي ليس كافيًا.. تعثرت وسقطت على الأرض..

باو!!

دوى صوت الطلقة في الصمت..

لقد هوجم بسيوني!.. هوجم بسيوني وأطلق الرصاص من مسدسه.. لا شك في هذا ..

تبًا!... من فعل ذلك؟

نوضت ممسكًا بمسدسي وفي حالة من التوتر كظهر قط مذعور.. لو لمسني أحد لأفرغت المسدس فيه بلا تردد..

أنا عاجز.. أنا ضعيف.. أنا واهن.. أنا في الظلام وحدي، والمسدس لا جدوى منه..

هل هناك من يصرخ؟..

فجأة رأيت الليثي من جديد وكان يحمل الكلوب في يده.. الضوء يشع منه لكن لا أرى من وجهه إلا جانبه.. تأثير مخيف يذكرك بلوحات رمبرانت. لاحظ حالة الجنون الوقتي التي أمر بها فراح يكلمني كأنه يكلم طفلاً:

."هلم!.. اهدأ.. لا شيء.. لم يحدث شيء.."

تراجعت للخلف فارتطمت بشيء يبدو أنه مقعد.. ووجدت نفسي جالسًا وأنا مستمر في التصويب نحوه .

."اهدأ يا باشا.. بشرفي كل شيء على ما يرام.. الأخ الذي يرافقك فقد أعصابه وحسب أن أولادي يريدون مهاجمته. أطلق رصاصة للتهديد في الهواء.. أنت تعرف كما أعرف أنه محدود الذكاء"

."وأين هو؟.. أين هو؟"

كنت أسأله بنبرة هستيرية تتعالى.. كأنني سأنتهي بالصراخ والبكاء على المسرح، لكن الوغد كان آية في الهدوء.. قال لي بصوت منوم قليلاً:

."اهدأ قليلا... أقسم بشرفي أنه بخير.. سأحكي لك حكاية.."

ظللت حيث أنا ألهث وأصغي، فقال في الظلام:

- "أعتقد أن الشيخ حكى لك.. حكى لك كل شيء عن لغز أسرتنا، وكيف يظل طيف الميت يحوم في المكان لعدة ساعات.. يحدث هذا بالذات في الليالي العاصفة. وهذه الليلة الرهيبة قرر أبو زبيدة أن الوقت مناسب ليتخلص مني.. إن أسرة (السنهوري) تريد الخلاص مني بسبب مشكلة حدود الأرض تلك.. أخبرني أحد المستأجرين بذلك فقد رآه يحوم حول العزبة لكن العاصفة تجعل تبين أي شيء مستحيلاً، وكنت أنا من اتصل بالشرطة.. لم يكن هناك إطلاق رصاص لكني قلت ذلك في البلاغ لأضمن أن يصل رجال الشرطة.. ما حدث بعد ذلك – وما فهمته مؤخرًا – هو أن أبا زبيدة تسلل للدار واصطدم بالشيخ فقتله . كان من السهل عليه أن يخنق عنقه النحيل. ألقى بجثته جوار حوض الغسيل الموجود في ركن المكان، وأنت تعرف ان المطبخ واسع جدًا مع الظلام؛ لهذا لم نر الجثة.. وما لم يعرفه أبو زبيدة هو أن الشيخ من أسرتنا!"

نظرت له في ذهول غير مصدق، فالتمعت أسنانه البيضاء في الظلام:

- "نعم.. هو من الفرع المعدم من الأسرة، وهو يعيش معنا كخادم لكنه يمت لنا بصلة القربى . الآن يمكنك فهم لماذا ظل الشيخ موجودًا طيلة الأمسية.. "

قلت وانا أرتجف كورقة:

- "لكنكم قدمتم لنا الطعام.. "

قال وهو يهتز بضحكة مكتومة:

- "بل هو الذي قدم الطعام.. لم يدخل الحريم المطبخ!"

- "هل تعني أن الذي اندس معي تحت الأغطية... هو..."

- "فسر الأمر كما تشاء.. ربما كان حائرًا لا يعرف حقًا إن كان ميتًا أم لا.. وكان يريد أن يشرح لك.. ربما كان يريد التسلية.. لا يهم.. دعنا نعد

لسياق قصتنا.. لقد اختبأ أبو زبيدة في تلك الغرفة ينتظر أن يظفر بي، وهنا فوجئ بذلك الشيخ ينقض عليه مسلحًا بسكين.. ربما كان الشيخ قد اكتسب قوة لحظية من الغضب، وربما لعبت المفاجأة دورًا.. عندما يهاجمك شخص قتلته فعلاً في الظلام فأنت لا تقاوم كثيرًا.. لقد مزق الشيخ أبا زبيده وغطى جثته كيفما اتفق ثم غادر المكان.."

"ثم جاء يحكي لي القصة مع حذف التفاصيل.."

"الصرخة التي أيقظتك من النوم كانت صرختي عندما وجدت الجثة.. وفهمت كل شيء.. والآن أنت عرفت ما حدث يا باشا.. القاتل قتل ثم قتله القتيل.. طبعًا لا يمكنك كتابة هذا في تقريرك، لهذا أرى أن تستغل الساعة القادمة في ترتيب قصة تقبلها الحكومة.. لا تفتش عن حقيقة أخرى فلا حقيقة سوى هذه.."

قلت ومخي يوشك على الانفجار من كثرة ما أريد السؤال عنه:

"وأين بسيوني؟.. بسيوني؟"

"بخير.. قلت لك بشرفي إنه بخير.. الآن أرجو أن تهدأ وتعيد المسدس ودعنا نعد للأسرة.."

نهضت مترنحًا...

وقفت على الباب، فنظر لي الليثي باسمًا وناولني الكلوب الذي لا يكف عن الأزيز وقال:

"أرجو أن تحمله أنت.. إن ذراعي ليست على ما يرام"

نظرت له بشك.. ثم حملت الكلوب ومشيت في الممر متجهًا للغرفة التي كان فيها بسيوني والأسرة.. لا أعرف متى لاحظت أنه لا يمشي خلفي.. ذاب في الظلام...

هذا الزحام في الغرفة..

لماذا تصرخ المرأتان وتلطمان؟... لماذا يبكي (سامي) و(مصطفى)؟... من الراقد وسط هذه المجموعة؟....

بسيوني يثب نحوي في هستيريا وهو يلوح بمسدسه ويصرخ:

"لم أتعمد ذلك.. أقسم بالله!... لقد أفزعوني.. حسبت أنهم سينقضون علي.. أخرجت المسدس أهددهم، هنا فوجئت بالرجل الكبير يعود للحجرة ويحاول نزع المسدس مني.. لا أعرف كيف انطلقت رصاصة من المسدس و أصابته.. لم أتعمد ذلك!!"

الآن امكنني أن أرى ذلك الراقد على الأرض وسط الباكين..

الليثي الكبير.. وثمة ثقب في جبهته..

لن أسأل عن ذلك الذي جاءني وحكى لي القصة وهو يحمل الكلوب... لم يكن الليثي.. لم يكن هو بالضبط....

رباه!.. أنا أكره مهنتي... أكرهها فعلاً!

تمت

كلام عجائز

هذا هو التفسير وقد أمنت أمي عليه .. كل النسوة يؤمنن بهذا..

لكن الأيام مرت ومعها تكرر ذلك الموقف عدة مرات.. كلما مات واحد من أقاربي لحق به اثنان في فترة لا تتجاوز ثلاثة الأشهر.. كان هذا غريبًا يتجاوز احتمالات الصدفة.. وسألت الناس الآخرين فوجدت أن هذه الظاهرة تتكرر عندهم..

هؤلاء النسوة اللاتي أكل عليهن الدهر وشرب، واللاتي لا يفعلن أي شيء ذي نفع لأحد إلا الجلوس ومضغ (الدرادير) والكلام عن الموتى الذين ينتظرن اللحاق بهم.. في الغرب يلتففن حول المدفأة في ليالي الشتاء الثلجية يحكن كنزات صوفية، وعندنا يلتففن في حوش المقابر يأكلن الفطير ويعرفن كل ميت بالاسم..

"التربة لما تنفتح ما تقفلش إلا على تلاته".

هكذا قالت أم (عبدالله).. وأم (عبد الله) – إن كنت لا تعرف – هي عجوز أبدية تقيم في دارنا ولا تفعل أي شيء على الإطلاق.. لا أعرف متى ولماذا جاءت.. أعتقد ان أبي رحمه الله تسلم البيت وهي عهدة فيه فلم يسأل عن دورها أو ما تفعله. فقط أمي كانت تعتبرها مزيجًا من الخادمة والمربية والصديقة.. أما السؤال عن (عبد الله) نفسه فسؤال لم يخطر ببال أحد.. تصور أنني تذكرت هذا الآن؟!.. أم (عبد الله) من دون (عبد الله) أمر عسير التصور نوعًا لكنه حدث..

أم (عبد الله) تخرج في الصباح.. تزور أضرحة أولياء الله التي لا يعرفها مسئولو وزارة الثقافة أنفسهم.. إنها تعرف أماكن أضرحة لم يزرها أحد منذ كانت الفسطاط عاصمة مصر.. كيف تذهب هناك ؟.. لا أحد يعرف.. كيف تعود وهي لا ترى أبعد من مترين ؟... لا احد يعرف.. المهم أنها تعود لتجلس في المطبخ جوار الباب وتمضغ المعسل الذي تبتاعه وتضعه مع كل ثرواتها في سلة خوصية.. أم (عبد الله) تمضغ المعسل.. تبصقه في منديل قماشي عملاق.. أم (عبد الله) تحكي لنا نحن أطفال البيت قصصًا مرعبة عن الغيلان والعفاريت..

(أم عبد الله) تعرف كل شيء عن الربط والعمل الذي يكتب على جلد قرموط.. تعرف الأعمال التي يدسونها في فم الموتى ويخيطونها.. تعرف كل شيء عن خاتم سليمان وطاقية الإخفاء..

أم (عبد الله) تعرف كيف يتم الاتصال بالجان . وتعرف العلامات الأربع التي تميز الملبوسين.. أم (عبد الله) تعرف الأدعية السحرية التي تقال عند (طشة الملوخية) تلك الأدعية التي تحميها من (الترقيد) كما أنها تشهق كأنها تموت غرقًا، وتقول إن هذه الشهقة سر نجاح الملوخية.. حينما سألتها عما تقوله لحظة (الطشة) قالت:

"النبي فات عليا.. قاللي اتشاهدي يا وليه.. على القليل وعلى الشويه".

ضحكت كثيرًا، وإن بدا لي هذا سخيفًا إن لم يكن فيه إساءة أدب . فالرسول لن يقول (ياوليه) وبالتأكيد لديه أشياء أكثر أهمية من ملوخية أم (عبد الله)، لكنه تدين العامة الذي يمزج الدين بالخرافات ويصدقها.. بل ربما يجعلها دينًا موازيًا..

أم (عبد الله) تعرف كل شيء عن (خراط البنات).. الذي كنت أتخيله رجلاً يحمل ما يشبه مسن السكاكين ويمر على البيوت ليسأل: "عندكم بنت في سن المراهقة ؟".. فإذا كان الأمر كذلك أدخله أهل البيت وأحضروا له البنت العجفاء القبيحة، وتركوه يحسن في شكلها بضعة أيام مع التكفل بوجباته الثلاث.. في النهاية تخرج الفتاة أجمل من (سعاد حسني) ذاتها وتقول العجائز إن (خراط البنات خرطها).. باختصار تعرف أم (عبد الله) كل ما من شأنه أن يجعلها عظيمة الأهمية بالنسبة للأطفال مرهوبة الجانب بالنسبة لأمي..

مقولة التربة التي لا تنغلق إلا بعد ثلاثة سمعتها منها كثيرًا وبدت لي هي السخف بعينه.. كبرت وصرت شابًا لكن العجوز لم تمت.. ظلت كما هي تمضغ التبغ وتزور أولياء الله الصالحين، وأحيانًا تلوّح لسيدنا (الخضر) عندما يمر بها حيث جلست على باب المطبخ..

مات أبي وأنا في سن السابعة عشرة.. ثم ماتت عمتي بعده بشهر واحد.. وماتت ابنة عمي بعد هذا بشهرين..

كانت تجربة قاسية كما لا يخفى عليك.. وقد تكلمنا كثيرًا عن الحزن الذي عصف بعمتي بعد فقد أخيها، والفتاة التي ماتت همًا لفقد عمتها..

لكن (الوليه) الجالسة كغراب البين على باب المطبخ قالت وهي تمضغ التبغ:

."التربة لما تنفتح ما تقفلش إلا على تلاته"

عدت للعجوز التي عادت من زيارتها لضريح (سيدي أبو سليم) فجلست جوارها عند باب المطبخ، وسألتها عمن يكون (سيدي ابو سليم) هذا فأنا لم أسمع عنه قط.. نظرت للسماء نظرة درامية وراحت تردد: مدد . مدد يا سيدي (أبو سليم)..

غلى الدم في عروقي.. هذه المرأة لن تكف عن إثارة جنوني حتى يذهب أحدنا للقبر.. سألتها عن قصة التربة التي تظل مفتوحة فقالت في صبر كأنها تكلم معتوهًا:

."يغلق الحانوتي التربة، لكنها تنفتح بعد رحيله.. هذه هي العلامة.."

ثم أخرجت قبضة من المعسل دستها في فمها، وسألتني في نوع من الدلال:

."أليس عندكم شيخ بابوني هنا ؟.."

هززت رأسي أن ليس عندنا.. فطلبت كوبًا من الشاي باللبن على أن أذيب فيه ملعقة سمن بلدي كاملة لتغذيها.. لما بدا الاشمئزاز على وجهي قالت:

."عندما تزوجت أرغموني على شرب كوب كامل من السمن البلدي لأصير ناعمة كالحرير.. أنتم مسمومون.. لم يعد في جيلكم صحة"

هذه نقطة أوافقها عليها كثيرًا.. وقد أعددت لها ما طلبت ثم قررت أن أتوجه لمقبرة الأسرة.. بحثت حتى وجدت (فرج) الحانوتي جالسًا يعد لنفسه بعض الشاي.. إنه نموذج فريد يستحق قصة كاملة أخرى.. هو لا يفيق من الحشيش ويمكنك ان ترى في عينيه مزارع القنب الهندي والماريجوانا والبانجو والأفيون منذ عرف الإنسان المخدرات.. لكن الحشيش يهب العجائز صبرًا و(طولة بال) عجيبين، مما يختلف عن الهياج المؤذي الذي تراه في صغار السن من المدمنين.. كان قريب لي قد مات منذ أسبوعين لذا تذكرني فرج على الفور..

حكيت له القصة كاملة فراح يهز رأسه موافقًا وحكى لي ألف قصة عن أشخاص ارتبطوا بهذا العهد الثلاثي المخيف.. سألته إن كانت التربة تظل مفتوحة فعلاً فهز رأسه في غموض ثم قال:

."هذه أشياء نلاحظها لكن لا نتكلم عنها.. فقط نحن نعيد غلقها وندعو الله أن يستمر الحال هكذا.."

شعرت بتوتر.. القصة مقلقة فعلاً... لكن منذ متى تؤخذ الشهادات الدقيقة من أفواه الحشاشين ؟... هذه شهادة نصفها من أم (عبد الله) صديقة خراط البنات ونصفها من عم (فرج) الذي يصلح محرقة للحشيش لدى وزارة الداخلية.. لا يمكن للقصة أن تبلغ درجة الدقة العلمية التي تسمح بنشرها في مجلة (سايِنس) العالمية .

بعد أسبوعين حدث المحظور وتوفي ابن عمي..

وقفت في ساعة الدفن أفرغ في منديلي مزيجًا من الدموع والمخاط والغبار.. وأنا أرى عم (فرج) ينهي تفاصيل غلق التربة...

ظل الخاطر المروع يؤرقني طيلة الليل.. اثنان.. من سيكون الثالث ؟... أمي ؟.. أختي ؟...أخي ؟... أنا ؟.. أفضل أن أكون أنا طبعًا لكن هذا صعب.. صحتي ممتازة ولست من هواة الحوادث ولا يوجد قاتل يطلب رأسي من الصعيد من اجل ثار بايت..

من الثالث ؟... هذه خرافة لكنها وترت حياتي.. الصدفة التي تتكرر بهذا الإفراط تتحول إلى قاعدة.. أمي ؟.. أختي ؟...أخي ؟... أنا ؟..

يجب أن أعرف.. يجب..

هكذا حزمت أمري ذات صباح، واتجهت إلى المقابر.. كان (فرج) جالسًا في حجرته وقد رفع صوت المذياع ورائحة الحشيش اللعينة تتصاعد من غرفته..

اتجهت لمقبرة أسرتنا حيث غاب أكثر من أحببت.. رحت أدور حول المكان في تؤدة..نباتات صبار عطشى ونباتات من ذلك الطراز الذي يلتصق بالشوك في سروالك.. ورائحة عطن و..

هناك فتحة.. لا شك في هذا.. التربة التي رأيتها مغلقة منذ أيام بإحكام مفتوحة الآن..

أطرقت أصغي.. هناك صوت بالداخل.. صوت حركة.. صوت كلام.. من قال إن هذه أمور خارقة للطبيعة ؟.. هناك لصوص مقابر منذ عهد الملكة (حتب حرس) حتى اليوم.. هذا شيء مفهوم وإلا فمن أين يأتي طلبة الطب بالعظام ؟

أشعلت قداحتي ودنوت من الفتحة.. كانت تسمح بدخول إنسان فلم تصنعها الفئران إذن.. نظرت حولي فبدا لي النهار مطمئنًا ،، إن هي إلا نظرة ليطمئن قلبي..

أدخلت رأسي أكثر.. ثم زحفت بجسدي كله للداخل لأتبين الأجساد المتراصة النخرة.. في هذه اللحظة مر شيء على يدي فأجفلت.. للمرة الأولى أعتقد أنني فقدت وعيي.. أنا اعرف أنني فقدت وعيي لأنني أفقت لأجد أنني ملقى على الأرض الرطبة والظلام يعم المكان.. هذا دليل مرور فترة زمنية كما يفعلون في السينما..

فأر مر على يدي فجعل قلبي يتوقف لثوان.. هذا هو الاحتمال الأرجح.. لكن أين الباب ؟.. هذا بصيص نور من الخارج.. إنه المدخل الذي دخلت منه.. زحفت نحوه وأنا لا أفهم ما يجري.. ثم تبينت أن هذه طبقة من القرميد وعجين أسمنت طري.. فوق مستوى الطبقة التي ترتفع ببطء أرى وجه (فرج) وهو يواصل مهمته بملامحه التي أفقدها الحشيش القدرة على التعبير..

صحت في هستيريا:

- "افتح يا فرج !... لقد سجنت بالداخل !"

غمغم ببعض الأدعية دون أن ينظر لي وقال:

- "كلهم يقول هذا.. كلهم.. لكني أغلق الفتحة في كل مرة.."

يقولها والحاجز يرتفع ليختفي وجهه تمامًا عني..

التربة لا تنغلق إلا لو ابتلعت ثلاثة !... قالتها أم (عبدالله)... لا يهم إن كان احدهم حيًا يرزق فالعدد هو المهم !...

والآن بعد أن جف الأسمنت وساد الظلام أنهيت كتابة هذه الرسالة على ضوء القداحة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة.. معي قلم وورقة.. أنت تعرف أنني أحمل قلمًا دائمًا.. لن اعتذر عن سوء الخط الذي كتبت به هذه القصة، فأنت تفهم وتقدر كل شيء الآن.. أليس كذلك ؟

تمت

الفهرس

لستَ وحدك

